تحت الرماد

الطبعة الأولى 2025

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية _عدن: 1434

اسم الكتاب: تحت الرماد

التصنيف: رواية

اسم المؤلف: عيشة صالح محمد

التنفيذ الطباعي: اتحاد أدباء وكتاب الجنوب

إشراف طباعي: محمد با سنبل

المقاس: 14 × 21

عدد الصفحات: 174

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طباعة الكتاب إلا بإذن خطي من الاتحاد

من إصدارات اتحاد أدباء وكتاب الجنوب
الأمانة العامة

إهداء

"إلى عدن، المدينة التي تنبض في شراييني ...

إلى شوارعها التي تسكن ذاكرتي، وأحيائها التي حاكت ملامح أحلامي ...

إلى بحرها الملهم، وسمائها التي شهدت ضحكاتي ودموعي.

إليكِ يا عدن، أهدي هذه الرواية، لعلّها تحكي بعضاً من قصتكِ التي لا تنتهي."

≈عيشة صالح محمد≈

الماضي

"أنجبتكِ غلطة!" كانت تلك العبارة تخرج من فم أمي كأنها سكين تمزق بها صمتي. لم تكن تعني خطأً عابراً، بل تقصد عدم استعدادها للحمل في ذلك الوقت، وربما ولا في أي وقت. كانت حياتها بائسة منذ اللحظة الأولى لزواجها، وحتى آخر لحظة عشتها معها. أشرع الآن في كتابة قصتي، لم أكن قد حددت من أين أبدأ، لكن تلك العبارة المكررة لأمي قفزت إلى ذهني: "أنجبتكِ غلطة." أمي، التي عاشت يتيمة، ظنت أن الزواج سينهي متاعبها، فكان بداية النهاية. هكذا دائما بمناسبة ومن غير مناسبة تتقافز عبارات في ذهني كتلك العبارة، وعبارة أخرى "لاتريني وجهك" ولكن الثانية كانت لأبي.

من الجسارة أن أتحدث عن أمي، فلست جديرة بأن أكتب شيئا عن حياتها، وأنا المغيبة عن تفاصيل أيامها وآلامها، وأنا الهاربة منها على الدوام، الشاردة عنها في مجاهل الأيام. عاشت أمي يتيمة يتقاذفها ذووها للتخلص منها، فرحت بالزواج، وظنته

النهاية لمتاعبها، هذا ما تتخيله معظم الفتيات البائسات، لم تعلم أنه بداية النهاية لحياتها.

بالنسبة لأبي، هي سلعة يلهو بها وما لبث أن مل منها وتركها مع أمه، وعاد إلى لهوه وغيابه غير المبرر، وعندما علم بحملها الذي حذرها منه، لم تستطع جدتي إنقاذها من كم الركل واللكمات والسباب، حتى كادت أن تفقد جنينها؛ كنتُ متشبثة بالحياة، وليتني لم أفعل حينها.

أخبرتني أمي عن طفولتها الهانئة عندما كانت تعيش في "رساب" قرية من قرى "يافع" الخضراء المتكئة على وادي رساب الخصيب، شمال "عدن"، مع أبيها وأمها وأخويها الذين يكبرانها، أسعد يكبرها باثني عشر عاما، أما حسن فالفرق بينهما ثمان سنوات، لم يكن يجرؤ أحد على إغضابها فهي مدللة أمها وأبيها، وكم كان أخويها يعمدان إلى ملاعبتها وإضحاكها كمقدمة لحاجة لدى أبيهم، أو لتحنين قلب أمهم حين يقترفان خطأ، كانا وغدين منذ الصغر.

مرارا تخبرني أمي عن تلك الأيام كطيف جميل يلوح في الأفق، أو صورة من صور الجنة عالقة في ذاكرتها، تستدعيها من حين لآخر، لتعيش لذة الذكريات التي كادت تتحول إلى خيال جميل ولو لدقائق، تخبرني عن رائحة خبز أمها الذي لا يضاهيه خبز أي امرأة ولا هي، وعن يد أبيها العريضة المحتضنة ليدها الصغيرة، حين ترافقه في جولته إلى السوق. تحدثني عن الزهور التي تجمعها من جنبات الطريق عند عودتها من المدرسة أسفل التلة الخضراء، لتصنع منها إكليلا.

لم تدم تلك الحياة فالقدر في جعبته الكثير، كانت الصدمة الأولى في سن العاشرة، حين فقدت السند والعمود الذي تقوم عليه أركان الأسرة، مات جدي، هكذا فجأة دون مقدمات في حادث سيارة، وصفت أمي ذلك اليوم بأنه اليوم الذي كبرت فيه، واليوم الذي اكتشفت فيه شعورا جديدا لم تكن تألفه ولم تعرفه، الشعور بالخوف. بعد موت أبيها اكتشفت أن الحياة لم تكن وردية، وأن الناس ليس كلهم طيبين، وأن طلباتها المستجابة التي تحصل عليها بسهولة، لم تأت إلا بعد جهد جهيد يبذله أبوها بصمت، فلا ترى

إلا بسمته وهو يأتيها بها، وأن حنان أخويها ما هو إلا تقية لعورات أفعالهم القبيحة، أما وقد مات فأنى لها التدلل.

جدتي عاجزة عن درء شر أخوالي عن أمي، فبموت جدي استحكمت سطوتهما، وظهر ما كانا يضمران، فاستوليا على الأرض التي كانت لجدي، باعاها بثمن بخس، واقتسما الأموال بينهما، متجاهلين حق أمهما وأختهما، وكان شرع الله غائبا في القسمة، حاضرا فيما يكون الحق لهما. استغلالا لمرض والدتهما وضعفها، وصغر سن أختهم.

فاجعة أمي الأخرى حدثت بعد سنة واحدة من موت جدي لتلحقه جدتي بعد معاناة من المرض، تاركة أمي لأخوين أذاقاها مر الحياة، أصبحت حبيسة البيت، لا تفعل شيئا غير خدمة أخويها، بعد أن منعاها من استكمال دراستها، وكثيرا ما كانا يعرجان على ذكر رغبتهما في تزويجها، وهي لم تتجاوز الحادية عشرة، فقضت أربع سنوات عجاف مع أخويها، تتأمل الحقول الخضراء من النافذة ولا تستطيع السير فيها، كما كانت تفعل، لم تعد تصنع الأكاليل من الأزهار التي تقطفها كل يوم، ولا قضاء

الأوقات مع صديقاتها اللاتي تسمع ضحكاتهن وهن يسرن قرب بيتها ذهابا وإيابا في طريق المدرسة.

رغم استسلام أمي لواقع الأمر إلا أن أخويها ضاقا ذرعا بها؛ فهما يكيلان لها السباب والضرب دون سبب، وذات يوم وجدت نفسها في الشارع، حرفيا في الشارع، باعا البيت وتقاسما ثمنه بينهما، بعدها تركا القرية ومضى كل منهما في طريقه، غير آبه بأخته والمصير الذي من المحتمل مواجهته. كل ما قاله لها أخوها الأكبر "اذهبي إلى بيت خالك" أما الأصغر مضى ولم يلتفت. توجهت أمي حينها إلى بيت خالها في القرية، والذي لم يكن موجودا فيه سوى زوجته وبناته، أما خالها كان في عدن حيث يعمل هناك ولا يعود إلا في الأعياد، شأنه شأن رجال القرية، أما يعملون في المدن، أو في بلاد الغربة، والقرية للنساء والصغار قبل أن يخط شنب الواحد منهم، ولم يكن مجيء أمي إلى بيت خالها مرحبا به، ولكن زوجة خالها قبلت بها لتخفف عبء العمل في البيت عن بناتها، فأصبح ما تقوم به بنات خالها الثلاث تقوم به أمي وحدها على صغر سنها ونحول جسدها.

إن معاملة أمي في بيت خالها كخادمة وتحملها فوق طاقتها، بعد أن كانت أميرة عند أبيها، أفقدها الأمان وثقتها في نفسها، وعزز فيها الخوف الدائم من القادم المجهول، ورغبة ملحة في إنهاء كل هذا، وعيش حياة أفضل، أخبرتني أن فكرة الهروب راودتها كثيرا ولكن إلى أين؟ لا مكان، لا أحد، لا مخرج.

في ذلك الوقت كان أبي يعيش مع أمه في مدينة "كريتر" تلك الساحرة القابعة على فوهة بركان خامد في حضن سلسلة جبال شمسان جنوب عدن 'عروس البحر الأحمر وخليج عدن'. كان أبي خائبا بكل ما تحمله الكلمة من معان، لم يفلح لا في دراسة ولا عمل ولم يكن يتقن شيئا، ولا يعول عليه بشيء، لم تكن جدتي على علم بما يفعله عندما يغادر البيت، كانت تنتظره كل يوم وتترك له الباب مواربا حتى لا يحدث ضجة عند دخوله مخمورا فاقدا وعيه، فينتبه الجيران. كانت دعواتها له بالهداية لا تؤتي ثمارها، ونصائحها لا تجد أذن صاغية. لا أعلم ما الذي انقدح في عقل جدتي عندما قررت تزويجه، وأي شيطان أشار عليها بأن زواجه سيهديه ويصلح حاله.

انتهزت جدتي فرصة في ساعة استيقاظه، وهو الوقت الوحيد الذي تستطيع أن تحدثه فيه؛ فهو بعد التهامه طعامه يغادر المنزل ولا يعود إلا آخر الليل كشبح أعمى ضال يتهادى. أخبرته أن عليه أن يتزوج ليجد من تهتم به وبها، فهي قد كبرت ولا تقوى على أعمال المنزل، وانتظاره إلى آخر الليل، ولازالت به حتى أذعن لرغبتها وأعلن موافقته على الزواج، كان ماكرا يريدها أن تفهم أن موافقته لأجلها، حتى يتملص بعد ذلك من المسؤوليات، ولا تجرؤ على لومه، فلو كان غير ذلك، ولم يوافق طلبها حاجة في نفسه لما استطاعت إقناعه البتة. شرعت بعد ذلك تبحث له عن عروس من الجيران والأهل والمعارف، فلم تظفر بموافقة أي فتاة، فأيقنت أنها لن تجد له عروس وهو بهذه الحالة من سوء الخلق، فالجميع يعلم بأنه عاطل وسكير، فما كان منها إلا أن قررت زيارة القرية فمن هناك لن ترجع خائبة.

يممت جدتي صوب يافع إلى قريتها، وهي نفسها القرية التي تعيش بها أمي، فكانت أمي هي العروس التي اختيرت من بين كل بنات القرية، فهي في نظر جدتي غنيمة، لم تحلم بأكثر

من هذه المواصفات، صغيرة، جميلة، يتيمة، ستأخذها لابنها ولن يسأل عنها أحد.

بعد هذه الزيارة تزوجت أمي من أبي، أخبرتني أمي أنها رغم جهلها بأمور الزواج وخوفها من المجهول إلا أنها فرحت به بادئ الأمر، سيما وقد سمعت كلاما لطيفا من جدتي ورأت فيها مشاعر الأم الحنونة، لم تعلم أنها كالمستجير من الرمضاء بالنار، هي لن تتزوج بجدتي بل ابنها الذي سينسيها متاعبها لأنه سيخلق لها متاعب تفوق فظاعة.

اتفق الجميع على يوم يحضر فيه أبي وخالي أسعد إلى القرية لإتمام الزواج، وكأنها بيعة تسليم واستلام، وغادرت أمي القرية مع أبي وجدتي ومن يومها لم تر أحدا من أهلها قط، وصفت لي أمي اليوم الأول في بيت زوجها(أبي) قائلة: "كنت كأرنب زج به في قفص أسد جائع" لم أفهم ماذا تقصد لكني عندما كبرت تذكرت قولها وأدركت ما كانت ترمي له ولم تفصح.

أدركت جدتي بعد فوات الأوان أن الزواج لن يغير ابنها، بل جعله أكثر إيذاء وتهكما، وأنها قد ضاعفت همها بتحمل مسؤولية فوق مسؤوليتها الأولى، وشعرت بتأنيب ضميرها لما يحدث لأمي، من إهانات وقسوة لا مبرر لها، انتهى الأمر بأبي إلى مغادرة البيت، فأصبح لا يأتي إلا نادرا دون موعد لمجيئه أو ذهابه، وجوده ما هو إلا حضور للفوضى والمشاكل، فساءت أحوال أمي وأصبحت متعبة نفسيا وجسديا، تتمنى الموت في كل لحظة.

في اليوم الثاني من عيد الأضحى جاء أبي إلى البيت بعد غياب يناهز شهرين، لا أحد يعلم أين كان كالعادة، وكانت أمي تتحاشى أي كلام أو فعل يغلب على ظنها أنه سيزعجه حتى تتفادى سورة غضبه. وكانت هي وجدتي تحتفظان بخبر سار، بالنسبة لهما طبعا، ظنتا أن هذا الخبر سيغير مسار تفكيره وسلوكه، لكن هيهات، لدى من؟ ما إن نطقت أمي بخبر حملها وأنه سيصبح أبا، حتى هاج وماج وألقى بكوب الشاي تجاه أمي فأصاب بطنها وأوجعها، وصرخ بأعلى صوته:

- من سمح لك بذلك؟ لا أريده.

ردت أمي وهي تتلوى من الألم:

- ولكنه حصل رغم أخذي لتدابير المنع، هذه مشيئة الله. من يكره أن يكون أبا؟

- قلت لا أريده، أيتها البلهاء، من قال لك أني أريد أن أكون أبا؟ ألم أحذرك؟

التزمت أمي الصمت ريثما يهدأ ولكنه استمر في الصراخ، فتدخلت جدتي قائلة:

- هون عليك يا بني، ما كل ذلك؟ ما حصل قد حصل، هذه نعمة من الله.

- أخبري هذه البلهاء أن تنزل حملها، ولا أريد أن أسمع يوما أنها حامل.

قال عبارته الأخيرة وهو مدبر يكر إلى الخارج، فخرج وضرب بالباب بشدة خلفه.

جلست بعدها جدتي إلى جانب أمي تواسيها، وتحاول التخفيف عنها مما تشعر من ألم، واحتضنتها وهي تقول:

- لا تخافي، ربما هو مصدوم من الخبر، وعندما يهدأ سيغير رأيه.
- وإذا أصر على إنزاله، مالعمل؟

تنهدت جدتي ثم قالت:

- خليها على الله...
- ونعم بالله... ولكن هذه المرة نجوت منه، ما أدراني ما يفعل بي حين يأتي في المرة القادمة؟

سكتت قليلا ثم أردفت:

- سأنزله..
- حرام يا بنتي..
- الحرام ما يفعله ابنك، كيف ستنقذينني منه؟

ضربت جدتي كفا بكف قائلة:

- ما باليد حيلة.

حاولت أمي التخلص من جنينها، ولكنها أخفقت بأن تنزله بأمان، فمحاولاتها كانت تسبب لها إنهاك جسدي كاد أن يودي بحياتها، فعدلت عن ذلك في نهاية الأمر.

كلما عاد أبي إلى البيت يملؤه صراخا ووعيدا، كأن معجم للكلام البذيء محشور في فمه، يتحرك في البيت ويخبط خبط عشواء، فتختبئ منه أمي، مع محاولات جدتي تهوين الأمر ومراضاته، فيهدأ قليلا، وهكذا تتم مسايرته والتغاضي عن مطالبته بالإنفاق وتحمل المسؤولية تحاشيا لعصبيته وعنفه، ولزوم مبدأ السلامة معه، حتى يغادر البيت فيتدبرن أمر نفسيهما.

مضت الأشهر التسعة وجئت إلى الحياة، رغما عن كل محاولات التخلص مني ... ليتك يا أمي أطعت أبي في هذا الأمر فحسب، هذا الشيء الوحيد الذي اتفق مع أبي فيه، أنه ما كان علي أن أولد، كيف عساي أن أعيش وأنا الكارثة بالنسبة لأبي والغلطة لأمي؟

اجتزت سنوات عمري بين أم منهكة نفسيا وجسديا، وجدة لا تقل إنهاكا، سبعون عاما وهي تطل على الدنيا والدنيا تأباها، فكيف لا تضع بصماتها عليها، أما أبي لا نراه إلا في زيارات متقطعة ولا يعلم أحد إلى أين يذهب أو ماذا يفعل؟

كنا نعيش في بيت صغير في الطابق الثاني لإحدى البنايات العتيقة في مدينة كريتر ، نستيقظ صباحا مع أبواق العربات وأصوات الباعة المتداخلة، كانت جدتي تنفق من معاش جدي الذي لا يغني من جوع، وحين يأتي أبي يرمي لها الفتات من المال متجاهلا كل احتياجاتنا.

كنت أفرح حين يغادرنا، فمجيئه بالنسبة لي مرتبط بالإهانات، وزيادة التوتر في البيت، لم يكن أبا كالذين أراهم في أفلام الكرتون أو أسمع عنهم في أغاني الأطفال، نعم تذكرت كنت أكره إحدى الأغنيات التي يرددونها في المدرسة أثناء الطابور الصباحي مطلعها "حبيبة بابا" كنت أقول في نفسي: "عم يتحدث هؤلاء؟!"

بلغت العاشرة من عمري وما زال الشارع هو المكان المفضل لي، كانت شوارع كريتر مغرية بزخمها وحركتها وتنوع الأشياء فيها، كانت مكانا مثاليا للتسكع دون ملل، كنت ألهو فيها مع بقية الأطفال إلى وقت متأخر بعد الغروب وحين أعود إلى البيت تنهرني جدتي قليلا ثم تسكت فلا طاقة لها بي، لم أخبر جدتي بما أتعرض له من مشكلات في الشارع، ولا حتى عن الفتى المشاكس الذي كان يلاحقني في الأزقة ليلمس شيء من جسدي، كنت أناضل وحدي ولا أخبرها بشيء حتى لا تمنعني من الخروج. وفي يوم جاء أحد الجيران إلى جدتي يسكن في الطابق الأول، إنه العم حسين، "يا له من حشري يدس أنفه فيما لا يعنيه" هكذا كنت أقول في نفسي عندما أراه، لدى العم حسين مقهى وسط الشارع، يضع كرسيه أمامه يراقب المارة، وصبيانه يباشرون الزبائن، يومها لام جدتي على تركي في الشارع لوقت طويل، فمنعتني من الخروج، إثر ذلك تعمدت إثارة الفوضى في المنزل، ولزمت العناد سبيلا للرفض، وأفرغت جدتي طاقتها في مسايرتي حتى استبد بها الملل والسأم، فاستسلمت وتركتني أخرج مجددا مع التحذيرات التي كنت أنساها حين مغادرتي باب المنزل. عدت من جديد أقضي

أوقات طويلة أذرع الشوارع من حي الطويلة إلى حي القطيع مرورا بجولة الفل المشهور وما حولها.

عشت في حيرة وتساؤلات كثيرة لا أجد لها جوابا، عندما أرى نفسي مختلفة عن أقراني، تفاصيل صغيرة في حياتهم اليومية بين أسرهم لا أجدها إلا في أحلام اليقظة حين أسترسل بها وأعتاض بها عن واقعي، أسمعهم يتحدثون عن أشياء لا مكان لها في حياتي، بل أني أتعمد مرافقة زميلات المدرسة إلى بيوتهن لأرى تلك الحياة التي يعيشونها وأنقلها إلى مخيلتي لأستحضرها في أحلامي وكأني أنا من يعيشها، ولجت يوما إلى منزلنا وبيدي ورقة الاختبار موسومة بالدرجة الكاملة مع ملاحظة جميلة محفزة من المعلمة ونجمة بجانبها، وما إن رأيت أمي صحتُ انظري يا أمي، فأخذت أمي تنظر إلى الورقة بفخر وقبلتني ثم استدارت تقول لجدتي: انظري ما أروعها غدير، إنها تبلي بلاء رائعا، فابتسمت جدتي وفتحت لي ذراعيها فهرولت بين أحضانها قبلتني وقالت: اليوم سأصنع لك كيكة الشكولاتة التي تحبينها، هكذا كنت أسترسل في أحلام اليقظة، أما في الواقع فالوضع مختلف، عدت مرة متأخرة

إلى المنزل فوبختني جدتي "ألن تتوقفي عن الدوران في الشوارع؟ لم لا تعودي إلى المنزل مباشرة؟ متى نخلص من همك؟ ... يا حسرة على هذه الخلفة!" وواصلت سيري إلى الحجرة كأني لا أسمعها، دفعت حقيبتي بجانب سرير أمي الذي أشاركها فيه عند غياب والدي هروبا من شخير جدتي، وفي حال حضوره أنام مع جدتي مستسلمة للواقع، ففتحت أمي عينيها ثم أغمضتهما نصف إغماضة، أحيانا لا أميز نومها من يقظتها، بدلت ملابسي وتوجهت إلى المطبخ لألتهم طعامي على عجل ليس لأي سبب، ولكني هكذا دائما أبدو على عجلة من أمري، وبعدها تظاهرت بأني مشغولة في إتمام واجباتي حتى أغافل جدتي وأنسل إلى خارج المنزل، شغفي المعهود.

كنت محبة للتعليم، وأعشق حصة التعبير، خلاف بقية الطلاب حيث يتذمرون منها، لاسيما حين يكون التعبير حرا، كنت أكتب كلاما يفوق سني، أكتب عن مشاعري التي قد لا يفهما أحد، وأبتكر قصصا عشتها في أحلام يقظتي، حين أكتب أشعر أنه قد نبت لي جناحان، أحلق بهما حيث أشاء. كنت أبذل ما بوسعي

للتفوق ليس للنجاح فحسب، كنت أتوق إلى ترتيب أعلى بكثير مما كنت عليه، كنت أغبط زميلتي عندما أرى مشهد الاحتضان والتصوير في يوم توزيع الشهادات، رغم أني متقدمة عنها في المركز إلا أني لا أجد عُشر الحفاوة التي تجدها. أحببت المدرسة والشارع وأي مكان آخر إلا البيت، أشعر فيه بالاختناق، أشعر أنه مكان مخصص للحزن، لا بهجة فيه ولا سرور، لم يكن لدي القدرة على وضع المسميات في مكانها وتوصيف الأمور، كنت أشعر أنني أريد حياة أخرى فحسب، غير هذه التي أعيشها.

هروبي إلى الشارع كان وسيلة لتحاشي البقاء مع أمي وجدتي لأنهما تشعرانني بالألم والحسرة، لمجرد النظر إليهما، ناهيك عن سماع شكواهما إلى بعضهما البعض التي لا تنقطع يوما، لا يمر يوم دون أن أسمع "يا حسرة" "الموت أهون لي ولا هذه العيشة" "ولا أحد يرجى منه فائدة" "ما الذي ورطني بهذا كله" "يا رب خراجك" وكنت مرارا أرى الدموع في عيني أمي ولا أعرف ما الذي علي فعله لأنهي ذلك، أو التخفيف من معاناتها. دائما ما أشعر بأن هناك شيء ما ينبغي أن يحدث ليتغير كل شيء ولا

أعلم ما هو وكيف يحدث؟ فأهرب إلى الشارع لتجنب رؤية الحزن في عيني أمي، وتنهيدات جدتي. مشاعري مختلطة ومتضاربة، أشفق على أمي حين أرى البؤس في عينيها، ثم تنقلب المشاعر إلى كره، نعم كنت أكرهها في بعض الأحيان، أخجل أن أقول ذلك، ولكني بحثت عن كلمة تصف ما كنت أشعر به في بعض اللحظات حيالها فلم أجد إلا كلمة كره أقرب، وربما لا يكون كرها ولكني لا أعرف ما أسميه، دائما أعاتبها بيني وبين نفسي، ما الذي فعلته لأجلي؟ لمَ لمْ تكافح بما فيه الكفاية لأجلي؟ أهذه هي حياتنا؟ أهذا كل شيء؟ بعدها أنفض الأفكار من رأسي، لأقول لنفسي وما عساها أن تفعل؟ فهي ضحية لا تملك لنفسها شيء ناهيك عن أن تفعل لي أنا.

في سن الثانية عشرة عدلت عن عادة التسكع في الشوارع مع قريناتي، وهذا لا يعني أني استمعت إلى كلام جدتي ولزمت المنزل، أو أني بت عاقلة وانتهى شغفي باللف من شارع لآخر، على العكس، لم يحدث ذلك، فقد أصبحت لا أعود إلى المنزل قبل الثامنة مساء، لكني كنت أعمل وأجني المال، فحلم الثراء

واقتناء الأشياء الثمينة والحياة الرغيدة بدأ يكبر، لا أتوق فقط إلى توفير المأكل والملبس والأخذ من ملذات الحياة وأطايبها، بل أكثر من ذلك، وما كنت أنتظر من أحد أن يهبني شيئا ولا مائدة تهبط من السماء، بل كان اعتمادي على نفسي سبيلي منذ صغري، فقد عركتني الحياة وعلمتني من دروسها قبل أواني. فاشتغلت في العديد من المتاجر المنتشرة في مدينة كريتر، متجر المثلجات، متجر الزينة، متجر العطور، وغيرها... وكنت أحسن عادة الادخار والتخطيط لمشاريعي الخاصة، فكان أول مشروع فكرت به ونفذته وأنا في الثالثة عشرة، مشروع لوحات الفلين، فكنت أعمد إلى اختيار صور وطباعتها بأحجام مختلفة وقص ألواح الفلين ولصقها عليه وبروَزتها بشكل أنيق مع تعليقة أو مسند خلفي، فأجد كثير من الزبائن الذين يرغبون في شراءها، وبعضهم يختار هو الصورة فأشتغل عليها، ومشروع آخر أبدعت فيه وهو صناعة أساور الخرز والنمنمات، كانت مشاريعي الصغيرة تلك تشعرني أني كبيرة متفوقة على أقراني، عندما أفتح صندوقي الصغير الذي أدخر فيه نقودي الفائضة عن حاجتي، وأعدها من جديد كلما وضعت فيه

ألفي ريال، أشعر أني أعد ملايين وأني في عداد سيدات الأعمال وأرباب المال.

مرضت أمي ولا أعلم ما هو مرضها على التحديد، ولكنها أصبحت هزيلة منهكة تلزم الفراش معظم الوقت، وجدتي أزداد قلقها وتوترها الذي كان يتزايد مع أزمة الوضع العام للمدينة، ففي مستهل العام ٢٠١٥، في مرحلة الدراسة الثانوية، بدأت إرهاصات الحرب، وبوادرها تفعل فعلها، حتى اندلعت الحرب وأصبحنا قاب قوسين من الهلاك.

"أمي بدأت تشعر بالضعف أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وكنت محاطة بشعور بالعجز والخوف. لم أكن أدري ما هو مرضها بالضبط، ولكنني كنت أرى كيف تحولت إلى شخصية هزيلة تعجز عن الوقوف طويلاً، وهذا كان يقلقني بشدة. بينما أمي تكافح مع ضعفها، كانت جدتي تزيد من قلقها يوماً بعد يوم، وتوترها لم يكن يقل مع تزايد الأحداث الصعبة في المدينة. كانت معارك الحرب

تقترب أكثر فأكثر من منزلنا، ويبدو أننا كنا على بُعد أمتار قليلة فقط من شرارة قد تحول حياتنا رأساً على عقب.

الحرب

٢٠١٥ عام الفزع والانقسام. كنت في سن السابعة عشرة، محاطة بضغوطات الدراسة الثانوية، ولكن بدلاً من أن تكون مرحلة من الاكتشاف والطموحات، كانت تُراكم على عاتقي تلك الأحداث المروعة، بدأت إرهاصات الحرب تتصاعد، كما لو كان الظلام يعلن بكبريائه عن فعلته الوشيكة، وكل يوم يُثبت تواجدها بشكلٍ مزعج. وفي لمح البصر، اندلعت الحرب بكامل قوتها، وأصبحنا نعيش على وشك الهلاك.

ساد البلاد هدوء غريب تلك الليلة من ليالي شهر مارس، وكأن الهواء نفسه قد شعر بالتوتر المتزايد. بدأ صدى الانفجارات يصدح في الأفق، ولكن لم يكن هذا الأمر غريبا في تلك الأوقات العتيقة. ومع مرور الوقت، رأينا أنفسنا محاطين بأنباء مروعة، مطار عدن يتعرض للقصف! بدأت تنبؤاتنا بالواقع تتحول إلى حقيقة مروعة وسط هدير تلك الانفجارات القاتلة.

فتحت جدتي النافذة وبدأت تتحدث مع الجيران المتجمعين أمام البناية:

- يا الله ... يقولون إن المطار قصف. ربنا يستر.
- ولم أنت غاضبة يا حجة، هل كنت حاجزة للسفر؟

(ثم يضحك)

- ولك نفس تضحك وتنكت والدنيا مقلوبة على رأسها.
- نضحك من كثر الهم الذي فينا، الجماعة شادين حيلهم علينا، لكن والله ما نستسلم لهم.
- لسنا منبطحين مثل غيرنا، سنريهم بطولات الجنوبيين.
- الله يقويكم، ويخارجنا مخرج خير.

إنها لحظة الصراع، حيث تتصارع قوى متنازعة بكل قوتها. الحوثيون وجماعة صالح في صراع ضد المقاومة الجنوبية من كل أطياف الجنوب، وجماعة هادي من عدن وغيرها، كلها تلك الأطراف تتصارع من أجل الهيمنة والنفوذ والإمساك بزمام

الأمر. كانت المعارك تدور في كل مكان، وكأن الحرب قد غمرت كل شبر من الجنوب تاركة وراءها مأساة لا تُنسى.

وسط تلك الأحداث الهائلة، أحسست بقلبي ينغمس في بحر من الفزع والهم. كيف يمكن للواحدة أن تتحمل كل ذلك؟ كيف يمكن لعائلة صغيرة مثلنا أن تواجه هذا العنف الهمجي؟ المدينة كانت تشتعل بالنيران والصراخ، وكل ما كانت لدي هو أمل صغير في بقاء عائلتي سالمة. كانت تلك لحظات الفزع التي ستظل محفورة في ذاكرتي إلى الأبد.

ليلة أخرى دامية، أواخر مارس ليلة قصف الطيران لقصر المعاشيق، كما لو أن الجحيم قد بزغ من باطن الأرض وانحدر نحونا بكل قوته. لم نكن ندرك ما الذي يجري، لم يكن هناك وقت للتفكير، الهروب يراودنا ولكن إلى أين؟ أحاط بنا ظلال الظلمة والخوف والقلق. القصف لم يكن مجرد انفجارات، كانت صرخات الألم والفزع تمتزج معها، ملتصقة بأذني كلما هب الريح. في تلك اللحظات تضيع الأحلام وتموت الآمال، كأن مصيرنا كان مرتبطا بمصير هذه المدينة المنكوبة.

لم تكن الخيارات واسعة، إما الصمود في مكاننا متحدين الموت المحتم واللحظة الفاجعة، أو المحاولة اليائسة للفرار والموت بأيادي القتلة الغزاة من منحدري كهوف الظلام، كان الخوف واضحاً في أعين الجميع، لم يكن هناك من يستطيع أن يبقى ثابت النفس في وجه الخطر الذي يهدد بجدية حياتنا وحياة كل من نحب.

بقينا معزولين، لم نستطع مغادرة منازلنا، فالشوارع كانت محتلة بمظاهر الحرب والدمار، توحي بمخاطر لا تحتمل. لم يكن بمقدورنا الخروج لأخذ أي حاجة، حتى الضرورية، الخوف والاشتباكات كانا يحولان كل خطوة الى مصير مجهول ومخيف.

هذا الواقع المرير، تلك الليالي المروعة، وجدار الخوف الذي أحاط بنا، كلها تروي قصة البشاعة واليأس الذي عاشه الناس في تلك الأوقات المظلمة.

في غرة إبريل سمعت جدتي الناس في الخارج يتداولون أخبارا عن سيطرة الحوثيين وقوات صالح على مدينة خور مكسر

بكاملها، وهم الآن على مشارف مدينة كريتر، كان الوضع لا يحتاج إلى برهنة، ومع ذلك ضحكت وقالت: "كذبة إبريل" كانت تتمنى أن يكون إبريل ككل عام يبدأ بكذبة وتذهب لحال سبيلها، لكن هذا العام بدأ بجرح وزاد عمقا.

في قلب الحصار الخانق الذي فرضته الميليشيات الحوثية وقوات صالح على مدينة كريتر، كانت عائلة غدير وكل العائلات تواجه صعوبة يومية في الحصول على الغذاء، بدأت غدير تشعر بالمسؤولية تجاه أمها وجدتها وهي تراهما عاجزتين أمام وضع أكبر مما تطيقان، خرجت في منزلهم في أوقات خطرة في سبيل العثور على اللقمة التي تطعم بها عائلتها، وقد بات ذلك يضع ضغطا إضافيا على عائلتها، خصوصاً والدتها التي كانت تكافح مع مرضها المتفاقم. بينما كانت تتجاهل أو تخفي عن عائلتها حقيقة ما تمر به من صعوبات، كان القلق والترقب يلتف حول زوايا كل بيت في كريتر.

القذائف كانت تسقط بلا هوادة، مخلفةً سحب الدخان والأتربة وأصوات الانهيارات تعلو السماء. لم يكن هناك مكانا للهروب، كل المنافذ مغلقة وكل الطرق مقطوعة. غادرت الأحلام مكانها في قلوب الناس وانقسمت لتصبح حلمين: النجاة والنهوض من الركام.

وسط هذا الجحيم، لم تعد الحياة اليومية شيئا مألوفا. الروتين اليومي الذي كان يملأ المنازل بالحياة والنشاط تحول إلى انتظارٍ كئيب. حتى البسمات والدموع أصبحتا تشاركان نفس السطر الواحد.

وهكذا، تغلغلت ميليشيات الحوثي في حياتهم، استفحال الأمراض، وقتل الأحلام، وتفتيت حواس الأمان. وسط كل هذا، وفي ضوء الدمار واليأس، تجد غدير نفسها تكافح للبقاء قوية لأجل عائلتها، وتسعى لرسم بصيص من الأمل في سماء الكرب.

سيطرت المليشيات الحوثية على قصر المعاشيق ومحيطه. باتت أيامنا ولياليا مليئة بالفزع والهلع، انتشرت القناصة على أسطح المباني المحيطة، مما جعل كل ركن في المدينة خطرا محتملا.

سمعتْ صوت القذائف وهي تسقط بوتيرة متسارعة، محدثة ضوضاء مرعبة تهز كياننا. رأت الدخان يتصاعد في الأفق فيما انطلقت ألسنة النيران لتلتهم عدة مباني في جو من الدمار والخراب. لم يكن هناك مكان آمن، أضحت الحاجة إلى النزوح واقعاً لا مفر منه.

قلقة على صحة والدتي وجدتي ومتوترة بشدة، بدأت أشعر بأن الأمور انقلبت رأسا على عقب. لم نكن نعرف كيف يمكننا البقاء على قيد الحياة في وسط هذه الفوضى. البحث عن الطعام والدواء أصبح جزءا لا يتجزأ من يومنا، فالحصار الخانق الذي فرضته المليشيات الغازية جعل حصولنا على أبسط متطلبات الحياة تحديا شاقا، ومعاناتنا لم تكن تعرف حدودا.

هذه المرحلة الرهيبة كانت مفصلية في حياتنا، بل في حياتي أنا، لم أعد كما كنت.

– ما الذي يدفع بهؤلاء إلى قطع كل هذه المسافات مدججين بأسلحتهم، ليصلوا إلينا ويقتلونا، لا المدينة مدينتهم، ولم نرتكب في حقهم جرما؟

– الحقد ورغبة الاستعلاء وأطماع الدنيا يا ابنتي يفعل أكثر من ذلك.

اضطررنا إلى النزوح ولم يكن خيارنا بل دفعنا إليه دفعا. المشاهد متضاربة في ذاكرتي، قفز إلى ذهني الآن طريق العودة إلى مدينة كريتر، والقلوب تعتصر بمشاعر الفرح الممزوج بالحزن والترقب، فوج من الحافلات تحمل النازحين العائدين إلى مدينتهم المغدورة، بعد أن أجبروا على مغادرتها إلى المجهول، لم يكونوا ليغادروها لولا اشتداد الحرب والحصار واستحالة البقاء فيها على قيد الحياة.

جدتي في إحدى تلك الحافلات متشبثة بي وأمي المريضة، خانتنا قوانا فنمنا متكئات علي كتفيها لشدة الإعياء، وهي جالسة على المقعد كجذع شجرة متصلب رغم تعبها وحاجتها إلى الراحة، الطريق أصبحت أطول أضعاف ما كانت عليه وأكثر صعوبة، نتيجة للدمار الذي حل إثر الضربات الصاروخية، وزاد الأمر صعوبة النقاط الأمنية المنتشرة على طول الطريق لتأمين المدينة.

أسندت رأسي على النافذة مرسلة بصري إلى البعيد تارة أطالع آثار الدمار التي تترامى صورها خلف الحافلة، وأخرى أشرد بذهني إلى استحضار يوم النزوح وذكراه المؤلمة التي لا تنفك عن مخيلتي، عدت بذاكرتي إلى يوم خروجنا، كان يوما غير عادي غادرنا فيه المدينة ثلاثتنا دون أبي. خُنقت المدينة من كل الاتجاهات على ما تبقى من سكانها، فقد غادر معظمهم قبل اشتداد الأمر تحسبا لهذا الوضع، من حصار وانقطاع كل الإمدادات، لا كهرباء ولا ماء ولا غاز الطبخ ولا أي وسيلة وقود، كل شيء بات ينفد، حتى مخازن الأدوية خلت من أدويتها

المهمة... روائح في كل الأرجاء لأدخنة قذائف الهاون والمدفعية التي تباغتنا زخاتها صباح مساء، وتوديعنا للشهداء بات روتينا يوميا.

كانت جدتي متماسكة أو هكذا أظهرت لنا، على الدوام تبث روح الصمود فينا، تحاول كتم مشاعر الفزع والقلق حتى لا تضاعف من هلعنا أثناء الغارات، لم نكن قادرات على المغادرة مبكرا والنجاة بأنفسنا للتكلفة الباهظة وعدم وجود السند والمعين في آن واحد. في إحدى الليالي التي كنا نتوجس بدء الغارات، إذا بالباب يقرع على غير عادة، ولم أجرؤ على فتحه، كنت محشورة خلف الكنبة ألتمس مكانا آمنا يقيني من جنون الشظايا، أدركت أني أخشى الموت، أو أني لا أريد أن أموت بهذه الطريقة، ما زالت هناك أشياء كثيرة أريد أن أفعلها قبل الموت، أيها الموت ... ليس الآن ولا بهذه الطريقة. أمي ممدة فوق الكنبة غير عابئة، وجدتي على الكنبة الأخرى، قامت تمشي في الظلام الذي لم ينتهكه ضوء شمعة، مستندة على ما تجده في طريقها لتفتح الباب وهي تقول "اللهم اجعله خير" فإذا به أبين يدلف من الباب وفي يده كيس

صغير، بدا شاحبا، وعيناه محمرتان إلا أنه لم يكن مخمورا، كنا جميعنا مستيقظين، جلس أبي بجوار جدتي وألقى الكيس أمامه قائلا "قليل من الطحين، هذا ما استطعت جلبه" في الحقيقة كانت هذه المرة الوحيدة التي يحضر بها أبي شيئا، وكان كيس الطحين في هذا الوقت هو ما نحتاجه لنفاد المواد الغذائية من بيتنا وكذا المتاجر، كنا نحدق فيه ويحدق فينا وكأننا مسافرون اجتمعنا في إحدى الرحلات نتعرف على بعضنا، كسرت جدتي الصمت قائلة:

- جئت في وقتك يا بني هذا ما كنا نحتاجه..

ثم صمتت قليلا وتداركت...

- ولكن كيف سنخبزه ولا وقود لدينا؟

نهض أبي وأخذ يتلفت ثم قال:

- سأصنع موقدا في الشرفة.

عجنت قليلا من الطحين بينما أبي في الشرفة يجهز موقدا من صنعه، يشعله بما توفر من أعواد الخشب والكراتين، لا

بد من إيجاد البدائل وإلا سنموت جوعا إن أخطأتنا القذائف. لا وقت للغارات، هممت بإنهاء العجن فإذا بزخات القذائف تتساقط في كل مكان، وزمجرة وقوعها تخلع الفؤاد، ومع أول انفجار هرعنا باتجاه حجرة النوم فحشرنا أنفسنا تحت السرير، لا أعلم كيف تمكنا من ذلك، فحرارة النفس ومواجهة الموت تبث في الجسد طاقة عجيبة، ولما استبطأنا أبي أخذت جدتي تناديه من مكانها ولا إجابة، فسرى في خلدها أنه مختبئ في زاوية من البيت وقالت "سيتدبر أمر نفسه".

بعد نصف ساعة عم هدوء ما بعد القصف كالعادة، ولما انقضت دقائق الترقب، سمعنا جلبة من الخارج، لا شيء جديد هكذا بعد كل غارة يخرج الناس ليعاينوا الضحايا من الشهداء والجرحى، فانسلت جدتي وأمي من تحت السرير بحذر، وبقيت أنا تحته تحسبا لمعاودة القصف. ارتمت أمي فوق السرير تتأوه من آلامها بعد أن قضت وقتا وجسدها متكور تحته، وذهبت جدتي لتفقد أبي، فوجدته ما يزال في الشرفة وفي يديه أعواد الخشب،

ممدد على الأرض غارقا بدمه إثر شظية داهمته واستقرت في رأسه ولم تمهله حتى يختبئ.

لم تبك جدتي ولم تصرخ كانت الصدمة أكبر من أن تحتويها دموع، أو كأن الدموع تحجرت في عينيها، حتى كلامها تمتمات وحركتها مهزوزة تتهادى في مشيها كمن طمست عيناه، هكذا بدت والمسعفون يأخذون جثة أبي ويذهبون به إلى المستشفى الميداني حيث يجمعون الضحايا هناك قبل تشييعهم.

ساعات كئيبة عشناها وكأنها أعوام عجاف، أخبروني أن أبي مصاب ويتلقى علاجا، ولأول مرة أسأل عنه جدتي، لأول مرة أحسست أني أريد أن أعرف ما يحدث له، أحرق كبد جدتي عجزها عن الإجابة عن سؤالي المتكرر... "ماذا حدث لأبي؟" فما كان منها إلا أن أخبرتني الحقيقة، أن أبي مات، لا أعلم ما كان ذلك الشعور، لا أستطيع أن أصفه بالحزن ولا بالفقد ولا حتى بالرهبة، كان مجموعة من التساؤلات تتصارع في ذهني، لماذا الآن؟ لماذا ليس قبل ذلك؟ ما ضره لو مات في غيابه، حين لم نكن نفكر فيه؟ أكان عليه أن يجلب كيس الطحين ونحن جوعى ليموت بعدها؟

النزوح

في الفجر التالي إذا بأصوات عربات تبدد السكون وأحدهم يصرخ بأعلى صوته: "أيها الناس أخرجوا من بيوتكم حان وقت المغادرة.. إن أردتم الخروج فالآن فرصتكم وإلا علقتم" ثم واصل صراخه المبحوح "لا تحملوا معكم أمتعة ثقيلة، أمامكم ساعتين ثم تتحرك بكم الحافلات إلى مكان آمن" أطلت جدتي برأسها من النافذة لترى الحافلات متجهة إلى ساحة تسمى الميدان، حيث تقف هناك استعدادا لنقل الأهالي، ورأت بعض الناس قد انطلقوا نحوها ليضمنوا مقاعدهم، "إلى أين سنذهب في هذه الساعة؟" حدثت به نفسها.

لم تتأخر جدتي في اتخاذ قرارها فليس لديها خيارات أخرى سوى المضي بنا مع بقية الأهالي لنلقى نفس المصير، فأيقظت أمي التي كانت نائمة، لم نأخذ شيئا معنا سوى حقيبة ظهر حملتها أنا فيها بعض ما نحتاجه، وأسرعنا للحاق بالحافلات، نهرع مع الجموع التي خرجت، وفي هذه الأثناء تصاعدت الجلبة مع توافد الناس من كل اتجاه وتزاحموا قرب الحافلات التي كانت لا

تستوعب الأعداد التي وصلت، وعندما عجز المنظمون، الذين تشكلوا من مختلف الأحياء، من ترتيب الناس أعلنوا أن النزوح سيكون على دفعتين، وهنا اشتد التدافع والتسابق، كل منهم يريد أن يكون وأسرته في الدفعة الأولى، وهنا فقدنا الأمل في ركوب أي من الحافلات، أنا وأمي وجدتي ما عسانا أن نفعل وسط كل ذلك الهياج، إذا وقعت إحدانا ستداس بالأقدام دون أن يشعر بها أحد، كنا ممسكات بأيدي بعضنا فانفلتت يدي من يد جدتي، ومع شدة التدافع فقدت رؤيتهما، فأخذت أصرخ ... جدتي ... أمي ... وبعد دقائق على تلك الحالة وعجز الشباب عن السيطرة على مجرى الأمور لجأوا إلى الاستعانة بشباب مسلحين –شباب المقاومة الجنوبية– فلم يتأخروا عن القيام بواجبهم الإنساني إلى جانب بلائهم في الاشتباكات للدفاع عن المدينة، فامتثل الناس أخيرا لتقديرهم الكبير لهؤلاء الشباب، وابتعدوا قليلا وأوقفوا التدافع وهم ينظرون بجزع باد على ملامحهم من أن تبدأ المعركة وهم لا يزالون ينتظرون، فأخذ شباب المقاومة بطمأنة الناس أن لا خوف عليهم وأن تنظيم الأمور سيمكنهم من إنجاز الإجلاء بسلاسة وسرعة، وفي هذه الأثناء التي كان يتحدث بها الشاب المنظم

اخترق صوته صوت جدتي صارخة... غدير ... فالتفت وكانت هي وأمي واقفتين ليس ببعيد، واجتمعنا أخيرا.

بينما نحن واقفين على الجانب ننتظر ما يؤول إليه الأمر، أعلن كبير المنظمين من شباب المقاومة أن الدفعة الأولى من النازحين ستكون من النساء والأطفال وكبار السن، فتنهدت جدتي ارتياحا للقرار ثم أتيحت لنا الفرصة لركوب الحافلة، وسمح لنا بشغل مقعدين فقط جلست جدتي وأمي وأنا حشرت جسدي في الفراغ بين أقدام أمي وجدتي والكرسيين المقابلين، أما المقعد المجاور أجلسوا فيه امرأة تبدو في الستين، وحيدة ومتعبة جلست ووضعت رأسها على يديها المستندتين على المقعد أمامها. بعد أن امتلأت الحافلات بالدفعة الأولى، وتهيأت للتحرك تراجع شباب المقاومة مسافة ليمكنوا الحافلات من المضي في طريقها، وهنا صرخ أحد الرجال الواقفين وهو يشير إلى شاب يتقدم نحو شباب المقاومة... قنبلة ... قنبلة ... تحت سترته قنبلة ... فارتبك الناس وهاجوا واستنفر الشباب وصوبوا أسلحتهم نحو الشاب الذي يشير إليه الرجل، فهرب عندها مخترقا جموع الناس الواقفين في هلع مما

يحدث وكان نحيلا خفيفا لا تكاد قدماه تلمس الأرض، وذبالات شعره تتطاير، وابتعد عن المكان ولكن شباب المقاومة طوقوه من كل الاتجاهات ليستسلم، ولم يفعل بل فجر نفسه وتناثرت أشلاؤه على مقربة من جموع الناس، كانت جدتي تحاول أن تحيطني بجسدها رغم صغر حجمها ونحولها، ووضعت يدها على وجهي لتحجب عيني حتى لا أرى ما يفزعني، كأنها في هذه اللحظة ما زالت تراني طفلة، تدرأ عني ما يخيفني، كلنا غدونا في المعمعة. انطلقت الحافلات بالدفعة الأولى من النازحين ولا أحد منهم يعلم إلى أين الوجهة، سار الموكب محملا بالآلام والأوجاع والبشر، لكل واحد منهم قصة ألم. انتهت كل الأحلام والآمال وبقي حلم واحد فقط ... وهو البقاء على قيد الحياة، وفي مواجهة الموت يصغر كل عظيم، وتبقى الحياة مبلغ منى الإنسان ومنتهاها. كنا نودع شوارع كريتر بأعيننا، حتى انتهت كل الشوارع وتجاوزنا العقبة، المسماة بوابة عدن لتنحدر الحافلة صوب المعلا، وبدون مقدمات انهارت جدتي وانفجرت بالبكاء، البكاء المؤجل منذ صدمتها بموت أبي، جاء عنيفا يؤازره ألم النزوح إلى المجهول.

في منتصف الطريق الملتوية نحو مدينة الشيخ عثمان بدأنا نسمع أصوات المدافع، مسحت جدتي دموعها وتظاهرت بالتجلد أمامنا من جديد، وبدأت بالدعاء وليس غير الدعاء ما تملكه في هذه الساعة، فالخطر أمامنا وخلفنا وفي كل اتجاه، شعرت بالقلق أكثر عندما وقفت الحافلات ورأيت منظمي رحلة النزوح مرتبكين، حيث أن الطريق الرئيسية التي من المفترض أن تكون آمنة أصبحت عكس ذلك، فقرروا خوض طريق آخر ملتف بين الأحراش والأراضي الخالية، وأثناء استدارة الحافلات للسير في الاتجاه الجديد سقطت قذيفة مدفعية على آخر حافلة ورُئيت الحافلة وهي تنفجر وتتطاير شظاياها في كل اتجاه...

هالني ما شاهدته والهزة التي أطاحت بالركاب من مقاعدهم، وظلت عيناي معلقتين بالمنظر خلال النافذة حتى توارى، فالحافلات لم تتوقف بل زادت من سرعة سيرها، فالأولوية كانت لنجاة الأحياء منهم وتُركت الحافلة المنكوبة تلقى مصيرها براكبيها.

توقفت الحافلات صباحا بعد يوم كامل بليلته وهي تخترق الأحراش، شرق مدينة الشيخ عثمان في جو من الكآبة والوجوم، وعلا صوت أحدهم: "وصلنا" ...تلفتنا حولنا ولم نجد إلا الفراغ ... أرض خالية وبعض الشجيرات هنا وهناك "ما هذا بحق الله؟" قلتها في سري، ثم هممت بالنزول من الحافلة مع البقية والتفتُّ إلى المرأة التي بجانب جدتي وطلبت من جدتي أن توقظها حتى أتمكن من النزول، فربتت على كتفها قائلة: "هيا يا حجة علينا النزول من الحافلة" ولم تلق جوابا فأعادت عليها ما قالت دون جدوى، ثم حاولت إيقاظها فمالت عن المقعد، فأدركنا حينها أن المرأة ميتة.

طلبت جدتي المساعدة في إنزال المرأة، وعلمنا بعد ذلك أن هناك نازحة أخرى فارقت الحياة فوق مقاعدها، ربما من حمى الضنك التي تفشت بين الأهالي إن لم يكن كمدا وحسرة.

بدأ الناس يتساءلون بسخط: "لم جلبتمونا إلى هذا المكان الخالي من كل شيء، الموت في بيوتنا أهون من الموت في العراء؟" وعندها بذل المنظمون المتطوعون جهدهم في تهدئة النازحين وشرحوا لهم الأمر وهو أن هذا المكان هو آمن بالنسبة

لبقية الأماكن وأن الإمدادات في الطريق على وشك الوصول وخلال ساعات ستنصب الخيام، وبينما كان مسؤولهم يتحدث وصلت سيارات تحمل طواقم طبية وإسعافية وشاحنات محملة بالخيام وخزانات المياه والفرش... واستمر تجهيز المخيم إلى بعد غروب الشمس وخلال ذلك افترش النازحون و –نحن معهم– الأرض ووزعت عليهم وجبات جاهزة وقوارير ماء تسد رمقهم.

في المساء سُلمت خيمة لنا وثلاثة فرش ومثلها أغطية، سألت أمي جدتي بتوجع: "هل سننام هنا؟" ردت عليها بغصة ومرارة وابتسامة كابدت حتى تظهرها: "نعم يا ابنتي إنه مكان آمن... لن نسمع فيه صوت انفجارات ... وبعد أن تنتهي الحرب سنعود إلى بيتنا حاولي أن تصمدي، خلي أملك بالله كبير" وهكذا قضينا ليلتنا الأولى في المخيم، كانت الثلاثة أشهر التي قضيناها في المخيم كابوسا بالنسبة لنا جميعا.

توالت الأخبار المؤلمة التي تصلنا عن المذابح الوحشية والقصف المتواصل على دار سعد والمنصورة كسكاكين تخترق قلوبنا بحزن لا يوصف.

كرهت المرض أكثر من كرهي للحرب، قاتل صامت يحصد الأرواح في ثلاثة أيام أو أربعة، شبح حمى الضنك كان حليفا لقوى الشر مؤازرا لها، تعمدت السير مسافات طويلة لمغادرة المخيم إلى شوارع الشيخ عثمان الحاضنة للنازحين من المناطق المختلفة، هربا من المخيم المكتض بمصابي حمى الضنك، ولأتدبر شيئا للأكل، جلست في ركن على الرصيف لأستريح وجلست بجانبي امرأة أربعينية على ما يبدو، إن لم تكن السنين قد غدرت بها، تمسك هاتفها بيديها المرتعشتين ودموعها تسح على خديها، تبكي دون صوت، لم أستطع تجاهل الأمر، سألتها:

- هل هناك شيء؟ هل تحتاجين لمساعدة ما؟
- ماتوا ... كلهم ماتوا!
- من هم؟
- جيراني...

ودفعت إلي الهاتف لأنظر فيه، وكدت أن أتقيأ مما رأيت من صور لجثث ممزقة مضرجة بالدماء، وأخبار تتحدث عن أكثر من ثمانين مواطنا ومائة وستون جريح أغلبهم من النساء والأطفال،

ضحايا قصف المليشيات الحوثية للفارين من جحيمهم عبر القوارب في مرسى مدينة التواهي وكانوا متوجهين إلى البريقة في السادس من مايو قبل أن تجعلهم قذائف الحوثيين أشلاء على أرض المرسى.

"يا لوحشيتهم، ستظل هذه المذبحة وصمة عار على جبين الحوثيين وأعوانهم، مهما قدموا من قرابين الغفران، وتلفعوا بثياب الملائكة"

لا أحسن المواساة في مثل هذه الظروف، اكتفيت بالربت على كتفها، قائلة "أنت من التواهي إذن"

- أجل ... خرجت منها رغما عني أنا وأولادي الأربعة، بعد أن استشهد زوجي يوم أمس وهو يقاتل إلى جانب اللواء علي ناصر هادي والعميد ناصر السعدي ورجال المنطقة الرابعة ومعهم شباب المقاومة، في معركة حامية في حجيف – مدخل التواهي– وهم يصدون ضربات المليشيات.

تنهدت بعمق، ومسحت وجهها المبلل بالدموع، ثم استأنفت:

– صدمت الأمس باستشهاد زوجي وقبل قليل فجعنا باستشهاد اللواء هادي، والآن خبر المذبحة، حسبنا الله على المعتدي.

تنقلب صاعقة الأحداث القاتمة على الأرض، ونجد أنفسنا محاصرين في دوامة من الخسارة واليأس. كيف يمكن أن نستوعب هذا الجحيم الذي يجتاح أماكن آمنة؟ كيف يمكن أن نواصل الحياة ونحن نسمع عن مأساة تلو الأخرى تحدث في مكان نعرفه جيدًا؟

في كثير من اللحظات ملأني اليأس، لكن شيئا ما تنامى شهدته بين الناس، كلما اشتد الألم والجراح زاد معه الترابط والتلاحم والتراحم بيننا.

في ليلة ٢٧ رمضان الموافق ١٤ يوليو والمساجد تلهج بالدعاء، سرت في جسدي قشعريرة أحسست أن الملائكة تسير

معنا، تحوط بنا، كان الناس يتهامسون ولم أفهم ما يحدث، تلفت حولي، لا شيء سوى وجوه أظناها التعب والترقب، مشيت من شارع مسافة طويلة لأصل إلى مخبز للروتي لعلي أحظى بشيء للسحور، فجأة سيارات عليها شباب مسلحون يطلقون الرصاص في الهواء، شعرت بالخوف "هل انتقلت المعارك إلى هنا؟" تبدل شعور الخوف إلى نشوة كبيرة وفرح حين امتزجت الهتافات مع تكبيرات المساجد "الله أكبر ... الله أكبر" "عاش الجنوب الحر ... عاش الجنوب الحر" أدركت أن هؤلاء شباب المقاومة الجنوبية، "هل تحررنا؟ هل انتهت الحرب؟" الصبية يجرون وفي أياديهم علم الجنوب يرفرف في قلوبهم قبل أياديهم، ناولني أحد الصبية واحدا، لم أحبه كحبي له في هذه اللحظة، قبلته دون تفكير، جريت نحو المخيم، وجدت جدتي واقفة في الطريق تشاهد ما يجري أمامها في وجوم غير مدركة لما يحدث فتحتُ ذراعي وضممتها إلى بشدة:

- جدتي ... لقد تحررت عدن، سنعود ... سنعود.

بكينا كثيرا، وضحكنا كثيرا، أحسست برجفة جسدها، وازيزا يصدر من صدرها.

عدنا إلى المخيم أخبرنا أمي بالنصر العظيم، الناس كلهم خرجوا إلى الشوارع يهتفون ويبتهجون، وكانت ليلة حق لها أن تكون ليلة القدر.

إنها معركة السهم الذهبي، انطلقت من رأس عمران بقيادة اللواء الركن أحمد سيف المحرمي، وصناديد القوات الجنوبية، من كل مديريات عدن دون تمييز، ومن أبطال المدد القادمين من الضالع ويافع وردفان وغيرها، بسند من قوات التحالف العربي، لتحرير التواهي والمعلا وكريتر وخور مكسر من المليشيات الحوثية القادمة من كهوف الظلام.

كانت الأعلام ترفرف في الأفق، والزغاريد والتكبيرات تملأ الأجواء، حتى الأطفال الصغار كانوا يشاركون في الاحتفالات، عادت الوجوه مشرقة بالبهجة والأمل، غمرت اللحظات الجميع بالسعادة والتفاؤل، ومذاق الحرية والتحرير.

صور الابتسامات والضحكات الصادقة كانت تعكس روح الصمود والإرادة القوية للجنوبيين، إنها لحظات تاريخية لا تُنسى، تحمل الأمل والفخر والثبات ستظل محفورة في ذاكرة الجيل.

فجأة توقفت الحافلة أمام إحدى النقاط الأمنية، وانقطع حبل التذكر عند صعود أحد عناصر القوات الجنوبية لفحص البطاقات الشخصية للنازحين العائدين، ونزل بعد إكمال مهمته، ثم استأنفت الحافلة سيرها، وعلى مشارف مدينة كريتر هاجت المشاعر حزنا على من فقد الأحبة، وعلى الدمار الذي حل بها، وشفى صدورنا رؤية أعلام الجنوب وهي ترفرف في كل ناحية.

بدأت الحياة تعود لطبيعتها رويدا رويدا، وفي السنة التالية للحرب، عند عودتي من المدرسة ظهرا بعد إتمامي امتحان آخر مادة في الثانوية، بدا لي أن هناك خطب ما عند صعودي إلى منزلنا، وجدت الباب مفتوحا فهرعت إلى الداخل أحسست بارتعاش يدي حين رأيت عدد من الجارات متجمعات في البيت، وأمي ممددة على السرير وجدتي بجانبها تبكي، فاقتربت من جدتي بصمت ووجوم فلما أحست بقربي ضمتني إليها، ولم أكن معتادة على

الاحتضان دون سبب فهالني الموقف، أريد أن أبكي، بل أن أصرخ بأعلى صوتي، غلبني البكاء وسألت جدتي وأنا في حضنها:

- ماذا يحدث يا جدتي؟

ردت جدتي ببحة حزينة:

- أمك، ادعي لها بالرحمة يا ابنتي.

بدوت حينها كالبلهاء، لا يريد عقلي أن يصدق ما يحدث.

- ما الذي تعنيه يا جدتي؟ قولي شيئا آخر.

- أمك ماتت، ماتت يا غدير.

جريت إلى خارج الحجرة وتكومت في زاوية بعيدا عن الجميع وشرعت بالبكاء، أحسست أن الموت قريب، قريب جدا لدرجة أنه جاء إلى بيتنا مرتين، ولكنه هذه المرة أرعبني، بل أرعبتني فكرة أن يذهبوا بأمي إلى المقبرة ويتركونها هناك ويعودون. أحسست حينها أن الحياة غير مفهومة ناهيك عن الموت.

كان يوما حزينا ليس كأي حزن، عرفت نوعا جديدا من الحزن، حزن الفقد الذي لا أمل فيه، مع أني كنت أهرب منها إلى الشارع في طفولتي، وبعدها أصبحت أتحجج بالدراسة والعمل حتى أبقى خارج البيت أطول مدة، مع ذلك وجودها في البيت كان يشعرني بشيء من الأمان الذي اكتشفته بعد موتها، كرهي لها في بعض الأحيان لم يكن كرها، أدركت أنني من فرط حبي لها كنت أغضب منها لأجلها، كنت أكره الحزن في عينيها والضعف الذي طغى على حياتها، كنت أكره أن تكون لي أما عاجزة مكبلة ولم أكن أكرهها هي بذاتها، هذا ما أدركته حين خلا البيت منها، أصبحت أريدها على أي حال، رغم كل ذلك العجز كانت قادرة على أن تهبني شيء من الدفء، وهذا ما أدركته حين لمست الفرق بين وجودها وغيابها، حتى جدران البيت أضحت باردة، أصبحتُ أكثر حساسية، بدأ الخوف يدب في نفسي، من أن أفقد جدتي التي ليس لي سواها في الحياة، لا سيما وقد اشتد ضعفها، وقلت حركتها.

أرى نفسي أكبر بسرعة وتكبر معي دائرة صداقاتي ومعارفي، أنضجتني التجارب قبل أواني، وذلك بحكم احتكاكي بالناس كثيرا، ولأني بدأت العمل وأنا في سن الثانية عشرة وتنقلت من عمل لآخر، فكان أول عمل لي بائعة في متجر المثلجات في آخر الشارع الذي نقطن فيه، ثم في متجر للهدايا، وما أكثر تلك المتاجر في مدينتي، استمر بي الحال على نفس الوتيرة، إلى أن تخرجت من الجامعة بشهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال، بعد تخرجي لم ألبث كثيرا حتى حصلت على وظيفة في إحدى الشركات، كنت متفوقة، ولكن ليس هذا كافيا لأحظى بهذه الوظيفة فجمالي وجرأتي كانا عرابين لشهادتي وتخصصي، كنت أتوق إلى الاستقلالية من كل النواحي، ولا أذكر أني كنت أطلب شيئا أريده، أو الاستئذان قبل القيام بأي شيء، ولم تكن جدتي تتدخل في شيء يخصني، ربما كان ذلك في صالحي، ولعله كان مبكرا جدا أن يحدث ذلك.

هذه الاستقلالية جعلتني أكثر صلابة في مواجهة الحياة، تلاشى الخوف الذي بدأ بعد موت أمي، شعرت بأني قادرة على

خوض غمار الحياة بمفردي لأني أمسك بزمامها، المال والعلاقات الاجتماعية. هذا الثنائي الذي سيضمن لي حياة كريمة وسيجعل لي شأنا حتى عند أعلاهم شأنا، فالناس يحبون المظاهر والبهرجة، لا وقت في هذا العالم ليتفحصوا جوهرك، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، إن كان لديك المال سيزيدونك مالا، وإن كنت من مقدمي الهدايا الثمينة ستتلقى هدايا أكثر منها قيمة مادية، أما إذا كنت تتضور جوعا فلن تجد رغيف خبز جاف، وإن كان فمغموسا بالمذلة. طموحي كان كبيرا والأوضاع في البلاد لا تشجع على تحقيق كل الأحلام، فبعد حرب صيف ٢٠١٥ لم تعد عدن كما كانت، أصبحت مقبرة للطموحات الكبيرة، وما من أحد فيها إلا ويفكر في فرصة لمغادرتها، وغرس نفسه في بقعة أخرى من العالم لعله ينبت من جديد. لم يعد حب الوطن والتشبث بالأرض يؤتي ثماره لاسيما في جيلي الذي نشأ على الصراعات والحروب. يممت وجهي شطر الخارج، كانت الشركة التي أعمل بها لديها فروع في عدة دول فجاءتني فرصة للعمل في أحد فروعها الخارجة، بالتحديد في مصر، فلم أتردد بالقبول، كيف لطائر البقاء وقد فتح القفص، فأصبح عملي في القاهرة. تركت جدتي وكل ارتباطاتي وبدأت حياة

جديدة هناك، كان الفضل يعود لفارس، صديق قديم من شباب كريتر، كان فارس يعمل في نفس الشركة في عدن، وبينه وبين مديرها قرابة، سبق أن توسط لصديقتي مها التي أصبحت فيما بعد خطيبته، انتقلنا ثلاثتنا إلى القاهرة وفي الشركة من بين كل الموظفين حدث تقاربا كبيرا مع ثلاثة من الزملاء وهم نسمة وأمجد وطارق وهم عدنيون مقيمون في القاهرة، فأصبحنا الستة في فترة قصيرة أصدقاء نلتقي خارج العمل بشكل شبه يومي.

القاهرة

في القاهرة استأجرت شقة خاصة بي، رغم أن مها حاولت إقناعي بأن نتخذ سكنا مشتركا أنا وهي، لكني شرحت لها أن هذا لا يناسبني، فأنا بعد صخب يومياتي لابد لي من خلوة بنفسي لا أسمع فيها غير أنفاسي، ووجود شخص معي مهما كنت أحبه يزعجني في تلك اللحظات، لا سيما وأني اعتدت على كتابة خواطري آخر يومي أتحدث فيها مع نفسي، نفسي الحقيقة بعيدا عن المجاملات والتصنعات التي تهلكني طوال اليوم لمجاراة العالم المزيف حولي، فكان لا بد لي من تلك الخلوات مع نفسي حتى لا يأتي يوم ولا أعرفني. مها تركت عائلتها في عدن، ولكن لديها في مصر أختها الكبرى مقيمة برفقة زوجها وأطفالها، فأقامت في بيت أختها. أما نسمة فتسكن هي وعائلتها في شقة في حي فيصل – المكتظ باليمنيين المهاجرين– منذ مغادرتهم البلاد عقب الحرب، وكان أمجد يسكن وحده في شقة يملكها أحد أقاربه تركها له بعد أن حصل على إقامة دائمة في ألمانيا، وفارس وطارق يقيمان في السكن المشترك الخاص بالشركة.

لم يكن لدي في هذه الفترة أي خطوط حمراء ولا محظورات، كنا نخرج للغداء أو العشاء معا أو لسهرة في السينما وأحيانا ننظم رحلة إلى مدينة أخرى نقضي فيها يومان أو ثلاثة، ولا أحمل هم الاعتراض على شيء، كما يحدث مع مها ونسمة، حيث تضطران في كثير من المواقف إلى تأليف الكذبات، حتى تتمكنا من الخروج والتأخير. عندما كنا نذهب في رحلة معا، كنت ألاحظ مها وفارس يأخذان جانبا بعيدا عن البقية ... وهذا ما يحدث بين نسمة وأمجد مع أنهما ليسا مخطوبين، كنت أشعر أنهما يلهوان و ليسا جادين في علاقتهما، وما جعلني أشعر بذلك أنهما لا يتحدثان عن خطوبة ولا زواج، كانت تلازم أمجد عقدة تجعله يخاف من الارتباط والمسؤوليات، أما طارق فلا يمل من التقرب والتودد إلي، ولكني لا أتعامل معه بأكثر من كونه صديق، كان ذا شخصية مزدوجة، كثير التحدث عن الأمور السياسية وعن الحرب، وعن صولاته وهو في جبهات القتال، قبل أن يغادر إلى القاهرة، وفي الوقت نفسه لا ينفك عن مزاحه واهتمامه بالتفاهات وإطلاق النكات حتى في المواقف الجادة، كان جيدا كصديق يضفي على تجمعنا جوا من البهجة والتسلية، وكنت معجبة

بالجانب البطولي في شخصيته، لكن شيئا فشيئا انسحب من طارق الشاب المقاوم وبقي الآخر.

في أحد أيام الشتاء اقترح أمجد أن نسهر في شقته لمشاهدة فلم وتدخين الشيشة، أخبرنا أن علينا أن ننتهز الفرصة قبل أن تلحق به والدته بعد أسبوع للإقامة معه، ولبرودة الجو في الخارج وافق الجميع، وكانت المرة الأولى التي نسهر فيها في شقة أحدنا، واتفقنا أن نجهز فلما للسهرة ووجبات وعصائر، وافاني فارس ومها وذهبنا معا في سيارة فارس، ووصلنا الثلاثة إلى شقة أمجد في الثامنة مساء وكانت نسمة عنده فبادرتها الكلام:

- وصلتي قبلنا يا نسمة!
- أنا هنا منذ الصباح (قالتها وهي تبتسم)
- وكيف فعلت ذلك.
- على أساس أنك مريضة وأنا بجانبك.

ثم تضحك وتكمل:

- لا تنسي ذلك إذا اتصلت بك أمي.

- ألم تجدي عذرا أفضل من أن "تفاولي" علي.

- لا وحياتك.

بدا لي ليلتها أنها وأمجد بالغا في التجاوزات إلى حد بعيد، لا أعلم لم تضايقت، رغم أن حياتي لا تخلو من تجاوزات، ولم أكن بالجديرة لاستنكار شيء كهذا.

وصل طارق بعدنا بقليل وجلب معه وجبات للعشاء، ولج إلى الشقة محدثا جلبة قائلا:

- الليلة ليست كأي ليلة، جلبت لكم مفاجأة.

ثم أخرج ملفوفا والجميع يحدق به وقال مشيرا لما بداخله:

- "مكيفات على كيفكم".

الجميع بصوت واحد: حشيش؟!

هذه أول مرة ندخن فيها الحشيش معا، أما أنا فقد جربته من قبل منذ كنت في الثانية عشرة والسنوات التي بعدها، حين كنت أجرب كل شيء يخطر على بالي، مجرد فضول مني ثم أتوقف. في أضواء خافتة شاهدنا الفلم وشربنا الحشيش وتناولنا الطعام ورقصنا وضحكنا، وكانت ليلة الأول مرة لكل شيء، حتى الحاجز الذي وضعته بيني وبين طارق تلاشى.

عدت إلى المنزل في الحادية عشرة، ألقيت بنفسي على سريري ونمت دون أن أغير ملابسي، واستيقظت في الصباح على رنة هاتفي المحمول، إنها جدتي ما إن فتحت المكالمة حتى انهالت علي بالأسئلة:

– أين أنت؟ منذ ساعة وأنا أتصل، لم لا تردين؟ ألن تتوقفي عن اللامبالاة التي تعيشينها.

أجبتها بعبارة واحدة:

– سوف أرسل لك الحوالة المالية بعد قليل.

– تمام، ولكني لم اتصل لأجل الحوالة فقط، أريد الاطمئنان عليك.

– أمم ... حسنا.

– غدير ... مابك؟ هل أنت متعبة؟

– لا شيء يا جدتي، اطمئني، إني نعسانة فحسب ... سلام

أقفلت هاتفي دون انتظار رد، وعدت مجددا إلى النوم، وعندما استيقظت ظهرا، وجدت على الهاتف رسائل من طارق يعبر فيها عن سروره بالليلة الماضية، ويسألني عن شعوري تجاهه، فأجبته بثلاث كلمات: "لست بوعيي حينها".

أخذت إجازة من العمل، ثلاثة أيام، أحسست أني لا أريد رؤية أحد، وأقفلت هاتفي، انتابني شعور غريب لم يحدث لي من قبل، هناك صوت في داخلي بدأت أسمعه لم يكن موجودا من، لم أكن أسمع غير نفسي ولكن هذا الصوت غريب، إنه لا يتفق معي،

ولا يحابيني، ولا يتماهى ولا يتمادى، صوت ينهرني ثم يستعطفني ثم يستجديني ثم يعود ينهرني، أحسست بالدوار والغثيان ورغبة في النوم لأهرب من ذلك الصوت، الذي لا يصمت، ولا يتوقف، لكني في الأخير رضخت له ومنحته فرصة، فكان هو أنا، انتابني شعور بأني أريد أحدا بجانبي ليس كأي أحد، أحدا يفهمني ويأخذني من كل حياتي إلى حياة أخرى، أحدا ينقذني من نفسي ومن التفاهات، أحدا يملأ روحي من الداخل، أحسست أني أريد أن أصلي.

في الساعة الرابعة والنصف فجرا سمعت صوت الأذان كأنه يناديني أنا ويجذبني لأنهض للصلاة، خجلت من نفسي حينها فأنا لا أعرف الوضوء ولا الصلاة كما يجب، لم يكن الدين في حياتي، والله في ذهني هو الذي يحيي ويميت. ولكن لماذا يفعل ذلك؟ لم أقف يوما لأتفكر في أمر كهذا. كنت أرى جدتي وأمي وهما تصليان، وأسمع الأذان وأرى المصلين وهم يحثون الخطى نحو المساجد، لكني كنت أرى أن كل ذلك لا يعنيني، وأن هؤلاء ناس روتينيون يمارسون روتينهم الممل، وفي المرات القليلة التي تنصحني بها جدتي أو أمي كنت أقول لهما "انظرا إلى حالكما ماذا

فعلت لكم الصلاة؟"، فتكتفيان بقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" كنت أسمعها كثيرا ولم أفهم معناها، كنت أعدها لزمة تقال بعد كل خيبة أمل.

وجدت شرحا لتعليم الوضوء والصلاة على الإنترنت، فبادرت بالتطبيق. الماء الذي أستعمله كل يوم أصبح وقتها كأنه ماء من نور، شعرت به يطهرني وأنا أتوضأ، حين وقفت للصلاة أخذتني العبرة، أحسست أن الله يحدثني أنا، ينظر إلي أنا، يستمع إلي أنا، أنا التي طالما تجاهلت كل نداءات فطرتي وأعرضت، استقويت بغيره وأمنت نفسي بغير أمانه واستأنست بغير أنسه، وأنصت لكل ناعق ولم أنصت لكلامه، ودمعت عيناي ولم أتخيل يوما أن تخشع جوارحي وروحي كذلك اليوم.

انتهت أيام الإجازة وعدت إلى عملي وما إن رأوني حتى انهالوا علي بالأسئلة: "ما بك؟ "هل أنت بخير؟" "هل أنت مريضة؟"

كنت أعجب من أسئلتهم لظني أن التغيير في داخلي ولن يظهر على ملامحي، يبدو أن العينيين مرآتان للقلب بالفعل، كما

يقول المتكلمون. حاولت أن أختصر الإجابات وأتعذر بانهماكي في عملي، ولكنهم لم يتركوني في نهاية الدوام وأصروا على تناول الغداء معا، ولم أرضخ لإصرارهم، فاعتذرت لهم وغادرت إلى منزلي.

في المساء جاءت مها إلى شقتي وتحدثنا مطولا وبحت لها بكل ما أشعر به، قلت لها إنني غير راضية عن نفسي، وإنه آن الأوان لأصحح حياتي، وإننا لو استمررنا بالحياة بهذا الشكل فسنخسر أنفسنا، إن الحياة فيها طرق كثيرة ونحن اخترنا أكثرها وعورة، علينا جميعا أن نصحح أخطاءنا، وإني قد بدأت بنفسي، فقالت لي:

- نعم لدينا أخطاء كثيرة ولكننا لسنا سيئين.

- صحيح لسنا سيئين، ولا نؤذي أحدا، ولكنا بعيدون عن الله وغارقون في لهونا.

- وما الذي تنوين فعله؟

– قررت أن أبدأ حياة الالتزام الديني وقد عكفت على متابعة الدروس الدينية.

– في الأخير هذا قرارك، ولكن نحن أصدقاء لا تنسي.

– ستتوقف علاقتي بكم حسب رغبتكم في التغيير ... لم لا نتغير سويا ونكون سندا وعونا لبعضنا؟

– سنكون سندا وعونا مهما حدث، وإن لم نتغير.

لم تكن مها مقتنعة بقراري، وانتهى الحوار ونحن مختلفتان. استمررت بمتابعة الدروس الدينية، وتأثرت بالداعية حسن الذي أتابع محتواه على اليوتيوب، وكنت أبعث إليه بالأسئلة التي تُشكل علي، فيجيبني عليها ويزيدني من النصائح، كنت أشعر أن وجودي في الحياة أصبح له معنى، شعرت بسعادة غامرة وأنا في سيري إلى الله.

من حين لآخر أشعر بالحنين للقاءات الأصدقاء، لا سيما عندما أشاهدهم يتعمدون الحديث أمامي عن نزهة، أو يذهبون معا

لتناول الغداء وأغادر أنا وحدي. جعلت علاقتي بهم في العمل رسمية، ثم قررت أن أترك عملي وأبحث عن عمل آخر ببيئة مختلفة، فانتقلت إلى التدريس في إحدى المدارس الأهلية، وبهذا قطعت علاقتي بأصدقائي الخمسة حتى لا أضعف في يوم وأعود لحياتي السابقة.

بدأ التعارف بيني وبين الداعية حسن يأخذ منحا شخصيا، بعد أن رآني في المدرسة التي أعمل بها، عندما حل ضيفا في إحدى فعاليات المدرسة، بصفته داعية مشهور، وبعد فترة قصيرة طلب مني الزواج، والعجيب أنه في اليوم التالي هاتفني طارق وطلب مقابلتي وعندما رفضت وطلبت منه أن يقول ما عنده عبر الهاتف قال لي أنه يحبني ويريد الزواج بي. لم أطل التفكير، كان الأمر محسوما عندي، فأنا أريد رجلا يأخذ بيدي إلى السعادة الحقيقية، إلى القرب من الله، وإلى الحياة السوية الطيبة، وهذا لن يحدث مع رجل كطارق، لم أتردد أبدا في الموافقة على حسن. فكتب إلي طارق رسالة يقول فيها: "أعلم أنني لست كاملا ولن أكون، ولست أنت كذلك، ولكني راض بك، وأحبك كثيرا، واعلمي

بأنه لن يفهمك غيري، مهما ابتعدت سأكون في انتظارك" قرأتها ولم تغير شيئا من قناعتي، فكنت أرى في حسن تعويضا عن كل إخفاقات الحياة، فاندفعت نحوه كطفل عثر على أمه بعد ضياع.

هاتفت جدتي لأخبرها بقرار زواجي من حسن، ودون أن أخبرها أي شيء عنه قالت لي: "أخيرا وجدتِ من يلم شعثك" وجدتها سعيدة بالخبر الجديد، فتركتها تعيش سعادتها ولم أعقب أو أزد في حديثي. تزوجت من حسن، وذهبنا إلى إحدى المدن السياحية لنقضي شهر العسل، لم تكن الليلة الأولى كما توقعت، كانت المفاجئة صادمة، راقبته بصمت عندما قام بإحضار الشيشة والحشيش، وبدأ بتشغيل فلم خارج عن المألوف، قطعت صمتي متسائلة:

- ما كل هذا يا حسن؟

- لزوم الليلة، نحن عريسان.

- ولكن لا يجوز ذلك، وأنت أدرى.

– لا يهمك شيء، ربنا غفور رحيم، ونحن الاثنان ستر وغطاء لبعضنا البعض.

لم أتخذ موقفا حادا تجاهه، حاولت أن أتجاهل، لم أكن من قبل لأسكت على أمر لا يعجبني، لا أعلم ما الذي حدث معي لأمرر الأمر كأن شيئا لم يكن، قيود وهمية شعرت أنها نبتت على يدي، ولجام حط على لساني. لم أشعر بالحميمية معه. كان لقاء جسديا مقززا، وبين روحي وروحه بعد السماء والأرض. ما الفرق إذن بينه وبين طارق، غير أن طارق يحبني ويحاول أن يتغير لأجلي، كان واضحا منذ البداية ولم يظهر بوجه غير وجهه، خلاف حسن.

تكررت كل ليلة اللقاءات المقززة، فهو يتفنن في فعل كل شيء لا أرغب به، فأحسست أنني لن أستطيع تحمل ذلك، فما كان مني إلا التماهي معه باللجوء إلى تدخين الحشيش للتخفيف من وطأة الصد، فكان سعيدا منتشيا يوم أن شاركته. عدنا من سفرتنا وأقمنا في شقتي ريثما يكتمل بناء منزله، حيث كان يقيم في شقة مؤجرة بعيدة عن وسط البلد، وبدأت أداوم من جديد في

المدرسة، أما هو يجلس في البيت يسجل حلقات الوعظ الديني ويمنتجها لعرضها في قناته، لم أستطع تحمل الصراع الذي في داخلي فأخبرته أنني مصدومة مما رأيته منه، فقال لي:

- فرقي بين الحياة الواقعية وبين أكل العيش.
- وهل يعد الوعظ الديني أكل عيش. أنا بكل السوء الذي فيّ كنت حقيقية، ولكن أنت لم تكن حقيقيا.

قال لي بابتسامة وقحة:

- لا تتظاهري بالعفة ... واحدة غيرك لكانت حمدت ربها على الستر.
- أي ستر وأنت تعيدني لأسوأ مما كنت عليه.

تصنع الانشغال حتى يتهرب من الحديث، وهذا دأبه معي.

أغرقت نفسي في التدخين حتى أتمكن من مسايرته، فأدمنت بعد ذلك على ما هو أدهى، كان مكتفيا بالحشيش لنفسه

ولكنه لا يتأخر عن جلب الممنوعات، فهو من كان يوفرها لي، كان ذلك طريقه ليضمن بقائي مطيعة، فهو يعلم أني في وضعي الطبيعي صعبة المراس، وشيئا فشيئا هجرت صلاتي وأورادي، وانقلبت أسوأ مما كنت عليه في الماضي.

في ليلة من الليالي أخبرني حسن أن صديقه وزوجته يرغبان في دعوتنا للعشاء في منزلهما، وأن زوجته تود التعرف علي، فوافقت، فذهبنا، وتناولنا العشاء سويا، ثم انفردنا أنا وزوجة صديقه في حجرة وتركناهما في حجرة أخرى، وكانت لطيفة في كلامها وتعاملها، أحسست من فرط لطفها أننا أصبحنا صديقتين، وحين وثقت من ارتياحي لها بدأت تأخذ الحديث إلى منحى مختلف، ولاحظت في معرض كلامها أنها تمدح زوجها كثيرا وتصف كل شيء فيه لدرجة أنها تطرقت إلى علاقتهما الخاصة باستطراد، فعندها حاولت مقاطعتها وتغيير مجرى الكلام ولكنها تعود مجددا. استمرت تأتي بكلام من هنا وهناك، وأنا أحاول أن أكذب عقلي فيما فهمته، فقاطعتها وهي مسترسلة بالهراء الذي تقوله:

- إلى ماذا ترمين بحديثك؟

ردت بابتسامة وقحة ونظرات عاهرة:

- إلى ما فهمتيه.

ثم تركتها وناديت حسن فخرج إلى حجرة المعيشة، قلت له وأنا متوترة:

- لست مرتاحة لتلك المرأة، أريد العودة إلى البيت.

- لماذا، ما الذي أغضبك؟

توجهت نحو الباب، ولم يتأخر عن اللحاق بي قائلا:

- انتظري ... سنتكلم..

غادرنا منزل صديقه ولم نتحدث في الطرق حتى وصلنا منزلنا، شرعت أصرخ في وجهه:

- ما هذه الحثالة التي تسميهم أصدقاء؟

أخذ حسن يربت على كتفي ويقول:

- اهدئي يا حبيبتي، لست مجبورة على شيء لا ترغبين به. هي تفهم ذلك جيدا.

- كأنك تعلم بالذي تحدثت عنه؟

أجاب بتلكؤ ورجاء متصنع:

- استرخ وانظري للأمر بشفافية، لا تكوني تقليدية، هناك تجارب كثيرة، بإمكاننا خوض ما نرتاح له، وأنا لا أمانع بشيء، وفي نفس الوقت لن يحدث شيء دون موافقتك.. ها.. ماذا قلت؟

صرخت في وجهه ويداي ترتجفان:

- طلقني.

- اهدئي رجاء، سنتحدث لاحقا.

- قلت لك طلقني، لا أريد العيش معك.

كنت جادة في طلب الطلاق، ولم يكن قرارا وليد اللحظة، كان في قرارة نفسي لكني أجلته لمعرفتي بلؤمه فآثرت التريث إلى الوقت المناسب، وبعد الذي حدث إثر زيارة صديقه وزوجته، لم أحتمل التأجيل، وكما تكهنت رفض تطليقي، وغادر البيت بعد أن قال لي : "لن أطلقك، سأتركك هكذا معلقة إلى أن تستجديني لأعود" فكرت في اللجوء إلى المحكمة وطلب الخلع، فتحدثت إلى محام ليتولى القضية، وبعدها أدركت حجم التكاليف التي سأتكبدها ولم أكن مستعدة لها، فأجلت الإجراء لأتمكن من جمع المال الذي سأحتاجه للسير في القضية.

كنت مرتاحة رغم كل الذي حدث. إحساسي بذاتي جعلني أعيد توازني، وأستشعر عناية الله بي ليعيدني إليه مجردة من نوازع الأهواء. كنت كالمغيبة حين وافقت على رجل مثل حسن وأنا التي أفهم الناس من أول نظرة، ولكن كما يقال "لكل فارس كبوة" وأي كبوة، أفقدتني توازني وهزت ثقتي بنفسي، ظهر هذا المسخ في وقت ضعفي وحاجتي ليد تنتشلني فكانت يده هي اليد التي امتدت لتغمسني في وحل الخطيئة. مررت في الماضي بتجارب كثيرة

كنت أعرف الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والصح والخطأ، حتى وإن ارتكبت الخطأ كنت أعرف أنه خطأ، وبعد انكشاف حقيقة حسن أدركت أن الرذيلة قد تظهر بلباس الفضيلة، وأن الخير نسبي والشر نسبي، فنحن على الأرض لسنا ملائكة وشياطين، بل بشر وما دمنا بشرا فوارد منا أن نرتكب الأخطاء، وما يُحدِث الفرق أن هناك من يواجه نفسه بأخطائه محاولا إصلاح ذاته، وهناك من يكابر مفتون بستر الله عليه.

على مدى سنة كاملة غابت عني أخبار أصدقائي الخمسة، مها فارس أمجد نسمة وطارق، إلى أن صدمت بخبر مضى عليه شهر، رأيته صدفة على موقع التواصل "الفيسبوك"، نعي لأمجد على صفحة صديق، لقد تعرض أمجد لحادث سيارة أودى بحياته، ولم أمنع نفسي من البكاء، تركت نفسي لمشاعري دون كبت متعمد، غادرت المنزل مهرولة ولا تفكير مسبق لوجهتي، أردت أن أهاتف مها أو أي واحد من المجموعة، وأدركت أني قد حذفت جميع أرقامهم أثناء محاولتي تصحيح مسار حياتي، فقادتني قدماي إلى منزل أمجد.

جلست إلى جانب والدته مواسية لها، ولم يكن معها في المنزل سوى إحدى جاراتها، وبعد دقائق هممت بالخروج فأمسكت بيدي وقالت:" نسمة ومها في طريقهما إلى هنا" شعرت أنها تريد مني البقاء فبقيت، وكنت أتوق في داخلي لرؤية صديقتاي، وليتنا اجتمعنا بعد الفراق في حال أفضل من هذا.

رن جرس الباب فغادرت الجارة ودخلت مها ونسمة، تعانقنا وبكينا ولم نتعاتب، كانت الدموع تكفي لنعبر عن شوقنا لبعضنا، جلسنا إلى جانب والدة أمجد، ثم ذهبت نسمة إلى المطبخ لتحضر الأطباق والملاعق فقد أحضرت معها علبة طعام أعدته في بيتها، وعلمت فيما بعد أن مها ونسمة من حين لآخر تتناوبان في إحضار الطعام وتناوله مع والدة أمجد منذ وفاته، عندما رأيت عمق الحزن في عيني نسمة، وتأثير الفقد على ملامحها وكلامها وتصرفاتها، أدركت أنها كانت تحبه كثيرا، ولا بد أنه كذلك، لكنه حب الجبناء الذين يخافون من مسؤولياته ويكتفون بالجلوس على ضفافه.

بعد ساعة تركنا والدة أمجد لترتاح وذهبنا ثلاثتنا إلى إحدى المقاهي، تحدثنا كل الأحاديث المؤجلة، وفي أثناء أحاديثنا كنا نصمت قليلا ثم نعاود، انتابتنا بعض اللحظات المؤثرة، عجزنا فيها أن نعبر عما يعتلج في صدورنا بالكلام، فحين لا تطاوعنا الكلمات يفرض الصمت حضوره المهيب.

في الفترة الماضية تزوجت مها من فارس، أما طارق أخبرتاني عنه أنه كلما اقترب من فتاة لا يكمل معها، معللا بقوله: "ليست مثل غدير". قلت لهما:

- حقا.

كنت أرى في كلامهما مدحا وذما في نفس الوقت.

ردت مها.

- لا يتوقف عن الحديث عنك.

عقبت نسمة.

- لم يعد طارق الذي تعرفينه... يبدو أكثر جدية ...

ثم استدركت:

- ليس كثيرا في الواقع...

قلت:

- في الحقيقة لاحظت أنكم جميعا تغيرتم.

قالت مها:

- لم نتغير بل نضجنا أكثر.

ثم واصلت الحديث بنبرة أكثر خفوتا.

- التغيير هو فيك أنت... أشعر أن خطبا ما أصابك، ما بك يا صديقتي؟

كانت مها حنونة، ومتصالحة مع نفسها، رغم الانقطاع وجدتها كما عهدتها، وكأننا لم نفترق يوما، أظن أننا لو ابتعدنا قرن

من الزمان سأعود لأجد مها مثل ما هي عليه، بوفائها وحبها وطيبة قلبها، فقد خجلت من نفسي لأنني يوم ما فكرت أن أبتعد عنها، ما كان يجدر بي أن أجافي مثلها، كانت كثيرا ما تحاول استرجاع علاقتنا، وعندما لم تجد مني تجاوبا احترمت قراري غير كارهة ولا حاقدة.

تحدثنا كثيرا أنا ومها ونسمة ولم أخف عنهما شيئا، أخرجت كل ما في صدري، أخبرتهما أنني أردت أن أتخلص من تفاهات حياتي ثم أيقنت أن هذه التفاهات لا تعد شيئا أمام الوحل الذي كدت أن أغرق فيه. تحدثت إليهما وأنا على يقين بصدق مشاعرهما نحوي.

في اليوم التالي هاتفتني مها:

- اسمعي غدير، جميعنا سنلتقي في المقهى في الساعة الخامسة عصرا، لا تتأخري.

- من تقصدي بجميعنا؟

- أنا وأنت ونسمة وسيكون معنا فارس وطارق.

- لست مستعدة لهكذا لقاء، دعينا أنا وأنت ونسمة نلتقي فحسب.

- لا تتهربي غدير، نحن هذه المرة نلتقي لأجلك.

فعلا كما قالت مها، كنت أريد التهرب من مقابلة طارق بالذات، ولكن إصرارها جعلني استسلم، فالتقينا في مقهى وجلسنا حول طاولة مستديرة، بدأت الحوارات بيننا جميعا حول الأحوال والصحة، وفي أثناء ذلك قالت مها:

- ما بكم؟ لسنا جديين لهذه الدرجة.

ثم التفتت إلى طارق:

- منذ متى أصبحت خجولا؟

ضحك الجميع، ثم سادت لحظة صمت، تذكرنا فيها صديقنا أمجد، ثم ترحمنا عليه.

أخرجت مها ظرفا به مبلغا من المال ودفعته إلي وقالت: "هذه هدية منا الأربعة لك، ولا تتأخري في إنهاء قضيتك" وعقب فارس قائلا: "وإن احتجت إلى شيء نحن بجانبك ولن نتخلى عنك"

غلبتني الدموع عندها وعجزت عن شكرهم.

- لا أعرف ماذا أقول لكم، الشكر قليل في حقكم.

- لا بأس، طبق زربيان كبير يفي بالغرض، بعد الحصول على الحكم طبعا (قالتها مها وهي تضحك)

كانت نسمة تجلس عن يميني ولاحظتُ أنها تومئ إلى طارق، ولم أفهم إلا عندما قامت وجلس طارق مكانها.

همس لي طارق:

- غدير...لا تحملي هم شيء بعد اليوم.

كلماته الدافئة وهو يقولها بجدية، وإطراء الأصدقاء له مسبقا جعلني أعيد نظرتي اتجاهه، فأنا أؤمن بالتغيير وبأن النفس

فيها الخير والشر وفي الجد والهزل، وتختلف النسب من وقت لآخر، وهذا ما يجعل شخصا في عين الناس جادا رغم بعض مواقفه الهزلية، وكذلك الشخص الهازل لا تخلو حياته من لحظات جد وحزم. وما علينا إلا الاشتغال على الجانب الذي نفضله، لا أن ندع الموجة تجرنا حتى نغرق في قالب يصعب علينا الانفكاك منه فيما بعد، وإن نجحنا في دواخلنا فأنى للآخرين أن يستوعبوا ما أصبحنا عليه.

بفضل أصدقائي تمكنت من إنهاء قضيتي مع حسن، استرجع كل ما قدمه لي، لم أشعر بالخسارة فمثله لا يعد خسارة بل مغنما، أي ساعة مشؤومة تلك التي فكرت بها الارتباط بشخص كهذا؟ كنت مغيبة تماما لدرجة أني نكرت نفسي، شعرت أن فتاة أخرى تقمصت جسدي، لم أكن يوما أضعف مما كنت في تلك الأيام، كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار. انتهيت منه أخيرا وبدأت أرمم روحي مما دمرني، واسلخ عفونة الماضي من جنباتها، وضعت لنفسي خطا معتدلا يرضيني ولا يشقيني.

مازالت فرصة العودة للعمل في الشركة متوفرة، فعقدت العزم على ألا أضيعها، فهذا العمل يستهويني ويحقق لي ما أصبو إليه، كانت الخطة أن أعود من بداية العام وقررت عندما أعود أن أركز جل اهتمامي على إتقان عملي والترقي فيه، إلى أن يأتي ذلك الوقت أظل متمسكة بعملي في التدريس، وكنت من حين لآخر التقي بمها ونسمة في منزل مها أو منزلي، أو في مكان عام، أما تلك السهرات انتهت بعد زواج مها وفارس ووفاة أمجد. لم يخبرني طارق أنه غادر الشركة، أو بمعنى أدق استغني عنه، عرفت ذلك في حديث عرضي بيني وبين مها. كان طارق يتحدث إلي كل يوم في الهاتف، يقول كل شيء يبدر في ذهنه من أخبار وفكاهات، ولم يتطرق إلى هذا الموضوع، وعندما استفسرت منه الأمر بدا محرجا من الإجابة، ولكنه في النهاية أخبرني أن مدير الشركة ضاق ذرعا من تصرفاته غير المسؤولة وتسويفه في إنجاز المهمات وكثرة تأخره وغيابه غير المبرر، تسبب كل ذلك بتراكم الإنذارات له إلى أن انتهى الأمر بفصله من الشركة، وتركه السكن الخاص بها، أسفت على الحال الذي وصل إليها طارق وتعاطفت معه لإحساسي بندمه ورغبته في أن يمنح فرصة من جديد، ولكن

في عالم المال من لا يربحنا لا لزوم له، هذا ما أدركته مبكرا في حياتي.

طلب مني طارق الزواج مجددا، ولم أرفض هذه المرة، شعرت بأني بحاجة إلى رفيق في دربي يؤازرني، يعرف ماضي وحاضري، وعايشني بكل تقلباتي، لا يحتاج أن يفتش في زلاتي أو سقطاتي لأنه ببساطة كان شريكا في معظمها. وفي كلامه كان دائما يؤكد لي تمسكه بي، وأننا لا نصلح إلا لبعضنا، وافقت وقلت له: "لكن عليك ترتيب حياتك أولا وتأمين مصدر دخل وسكن، هذا أقل شيء قبل أن يفكر أي أحد بالزواج" شرح لي خطته وهي أن نتزوج ونعود إلى عدن فهناك يستطيع أن يبدأ من جديد، أما في القاهرة فلا فرص للعمل ويصعب البدء بمشروع، هكذا قال، وقال كذلك أن له صديقا في عدن ينتظره ليبدآ مشروعا معا كشركاء، وأنه في عدن يستطيع التحرك أما هنا فهو كالطائر المنتوف جناحاه، اختلفت معه في هذه الجزئية وحاولت إقناعه أن العودة إلى عدن كالعودة إلى نقطة الصفر، لا ضمانات لنجاح مشروع هناك، أن المدينة تلفظ أبنائها وتغتال الأحلام الغضة، فلمَ نرمي

أنفسنا في أحضان قاسية وقد نجونا منها، علينا أن نفكر كيف نعيش ونرسخ أقدامنا خارجها، ليس بالضرورة في القاهرة، في أي بلاد الله، إلا اليمن.

اختلفنا في أمر المكان الذي سنستقر فيه، ولم نصل إلى قرار نهائي، مع ذلك تزوجنا وعدنا إلى عدن لنجرب الحياة هناك ونرى كيف يؤول الحال، ولتسنح لي فرصة لتفقد جدتي حيث طال عهدي بها، مؤجلين النقاش حول تفاصيل مستقبلنا وعملي وعمله.

العودة

عاد الزوجان إلى عدن، غادرا المطار متوجهين إلى منزل عائلة طارق القاطنين في مدينة المعلا، كحل مؤقت ريثما يتدبرون منزلا خاصا بهم، وافقت غدير على مضض فلم تتخيل نفسها يوما تقبل العيش مع زوج وسط أسرته، وليس ذلك فحسب فهم أسرة كثيرة العدد، مكونة من أبيه وأمه وأختين في طور الدراسة الجامعية، رغد وريما التي تصغرها بسنة واحدة، وأكبر البنات تهاني، طلقت وانتقلت للعيش معهم هي وطفلتها الرضيعة آية، وأخوه عمرو أكبرهم جميعا اقترب من الخامسة والثلاثين ولم يتزوج، لا يكاد يبرح المنزل فهو عاطل عن العمل قدرا لا اختيارا، كما حال معظم شباب المدينة، وطارق يكون ترتيبه الثاني بعد عمرو، جميعهم يقطنون في شقة مكونة من أربع حجرات في الطابق الخامس في إحدى بنايات شارع مدرم الذي يطلق عليه الرئيسي. وصلا إلى المنزل وسط ترحيب أفراد الأسرة، ولم يخلُ اللقاء الأول بين الأم وكنتها من النظرات الفاحصة من قبل الأم والتحفظ المصطنع من غدير، وجلست بعد ذلك الأسرة متحلقين حولهما

يتبادلون الأحاديث والأسئلة، ثم قاموا بفتح الحقائب وشرع طارق باستعراض الهدايا التي أخبرهم أنها منه ومن غدير، وفي الحقيقة لم ينفق في شراءها جنيها واحدا.

بدأوا بفتح علب الحلويات وتذوقها؛ فما من أحد يأتي قادما من القاهرة دون البقلاوة والكنافة والقطائف، تناولت أم عمرو قطعة وهي تقول:

- لن أقاوم حلويات القاهرة ولذتها.

ضحك أبو عمرو وقال لها:

- خففي يا أم عمرو، فالسكر لن يرحمك.
- لا عليك ... سأتدبر أمري.

تدخلت رغد في الحوار قائلة:

- في حالة عدلت عن نصيبك، سآخذه أنا

فاعترضت ريما منافحة...

- ها وأين ذهبت أنا يا حبيبة أمك.

ردت الأم:

- اصمتا أنتما الاثنتان، من قال أني سأتنازل عن نصيبي؟

فضحك الجميع وأولهم طارق اتسع شدقيه بالضحك، واكتفت غدير بابتسامة متحفظة، فكان الجميع يرمقها بالنظرات الفاحصة بعد كل ضحكة يطلقونها. ثم بدأ طارق يستعرض الهدايا:

- هذا لك يا أبي، قميص وساعة ومحفظة..

أخذ أبو عمرو يقلب في القميص قائلا:

- بارك الله فيك يا ابني وأنت يا بنتي، جيد لم تخطئ المقاس.

ثم لبس الساعة وأخذ يريها لهم في معصمه، ويسمع منهم كلمات الإعجاب: "هدايا جميلة" " من اشتراها ذوقه عالي" "تستاهل

يا حاج" في هذه الأثناء كان قد أخرج هدية أمه، جلابية وشال وعطر، وما أن رأته أمه حتى انفرجت شفتيها بكلمة: "الله" مع الامتداد معبرة عن إعجابها، ووضعت رشة من العطر على ظهر كفها لتشمه: "الله على الريحة" قالتها وهي مغمضة عينيها. قال لها طارق: من اختيار غدير يا أمي" هنا ابتسمت غدير، وحولت أم عمرو عيناها إليها قائلة: "ذوقك حلو مثلك" فاتسعت ابتسامة غدير وقالت: "تتهني فيه يا عمة" هكذا في عدن تدعى أم الزوج عمة كما ينادي الزوج أم زوجته بنفس اللفظ ... عمة، أخذ كل منهم هديته من ملابس ساعات إكسسوارات عطور، ولم ينسيا هدايا آية طفلة تهاني من ملابس وأحذية. في خضم ذلك أشارت أم عمرو على البنات بالنهوض لإحضار الإفطار:

- كفاية تقليب في الهدايا... هيا يا بنات أخوكم وامرأته جائعان، احضروا الطعام.

قامت رغد ولمياء بتثاقل وأحضرتا الطعام للجميع، فجلسوا لتناول الطعام مع تبادل الأخبار والأسئلة التي لا تنقطع عن مصر والحياة فيها ولا تخلوا جلساتهم من الضحك والتعليقات على كل

صغيرة وكبيرة، علاوة على المهاترات المستمرة بين أم عمرو وأبوه، وكذاك التي تحدث بين البنات، وكل هذا من باب تزجية الوقت والمزح الذي يكون ثقيلا أحيانا، إلا عمرو لا يشاركهم هذه الجلسات إلا فيما ندر، دائما منطو على نفسه منفردا في غرفته، كثير الصمت، حتى طعام الإفطار لم يشاركهم فيه، فبعد أن أخذ هديته انصرف عاكفا إلى غرفته، وقد اعتادوا على طباعه فلا ينكرون عليه ولا ينتقدونه، رغم أنها طباع تولدت بالتدريج مع مرور السنين وليست أصيلة فيه، فقد كان شابا اجتماعيا ودودا مفعما بالحيوية، ففعلت الأيام فعلتها وتنكرت له ولم تذقه من ملذاتها، أو تطاوعه في أحلامه وطموحه حتى نبذها وزهد فيها.

كانت تهاني تنام هي وصغيرتها في إحدى الحجرات، ومع قدوم طارق وغدير ألزمتها أمها بترك الحجرة لهما والانضمام إلى رغد وريما وسط تضجر وتأفف، لم تتورعا في إظهاره حتى أمام الساكنين الجديدين، فبعد تناول الإفطار همست غدير في أذن طارق:

- هل سنبقى هنا في الصالة؟ أريد أن أرتاح.

رد عليها هامسا كذلك..

- انتظري قليلا، لا بد أنهم قد رتبوا لنا إحدى الحجرات.

في هذه الأثناء ارتفع صوت أم عمرو وقد تكهنت ما يدور بينهما، قائلة:

- تهاني ... هل أفرغت الحجرة من أغراضك؟ أخوك وزوجته يريدان أن يرتاحا.

مطت تهاني شفتيها قائلة:

- بقيت أشياء قليلة ...

ثم نهضت ودلفت إلى الغرفة، لتخرج وهي تجر حقيبة كبيرة مليئة بالأغراض، ثم ولجت إلى غرفة البنات لتلقي بها على الأرض، وتلحق ابنتها الباكية في حضن جدتها، أخذتها وعادت بها إلى الحجرة لترضعها، ولم تتجاوز رغد الأمر دون تعليق،

فقالت: "انتهي زمن الروقان، لا نوم بعد اليوم" فسمعتها تهاني ونهرتها قائلة:

- توقفي عن التذمر، أنا نفسي لا أتخيل النوم معك بنفس الحجرة، أيتها المزعجة.

- أنا المزعجة؟ هاا ... رمتني بدائها ...

- نعم أنت ومعك ريما، لم يكن صوت الأغاني ينقطع طوال الليل.

هنا قفزت ريما معترضة:

- لا تحشراني في كل شيء، أنا لا دخل لي .. هذه رغد..

وتدخلت أم عمرو ناهرة بناتها من جدالهن الذي لا طائل منه، فهي هكذا على الدوام تتدخل في الأخير لفض اشتباك الأخوات الثلاث. وفي أثناء ذلك انسحب طارق وغدير بهدوء ودخلا الحجرة وأغلقا الباب، فباتا يسمعان الأصوات كأنها قادمة من فج عميق. وبعد ذلك انصرفت أم عمرو وأبوه إلى حجرتهما،

وبقيت رغد وريما في الصالة تعاينان الهدايا من جديد. في الحجرة غدير مستلقية على ظهرها تلتهم السقف بعينيها، وعقلها كأن ساقية تدور فيه، سألها طارق وهو يغير ملابسه:

- ما بك؟ يبدو عليك الانزعاج...

بدلت موضع عينيها لتتقلهما صوب طارق قائلة:

- يجب أن لا يطول هذا الوضع.
- نعم يا حبيبتي لن يطول، ولكن افرجيها ولا تكدري على نفسك، حتى تحين الفرصة المناسبة لنتخذ لنا بيتا مستقلا.

كان الجو في بيت عائلة طارق لا يهدأ أبدا، مناكفات ومناورات لا تنقطع، مرة بين الأخوات، ومرة بين أمه وأبيه، هم يرون الأمر طبيعيا لاعتيادهم عليه، لكن غدير ينتابها توتر وانزعاج كلما عاينت ذلك. في المساء ذهب غدير وطارق لزيارة جدتها في كريتر، منذ أن وصلت عدن والوجوم يسيطر على ملامحها، حاولت التخفيف من حدة ذلك، لتتفادى تنبيهات طارق لها وأسئلته التي يكررها، ونصائح في كيفية الحفاظ على رباطة

الجأش، وكأنه يعدها لمصير لا ترغب فيه، هكذا هُيء إليها منذ الوصول، وفي طريقهم إلى كريتر كانت غدير سارحة متأملة للمشهد الذي تركته منذ مدة، صعدت السيارة نحو العقبة المطلة على المعلا من جانب وتعانق كريتر من الجانب الآخر، فلمعت بوارق زمن فات، حتى إذا استوت السيارة وتجاوزت العقبة نحو كريتر وأطلت مبانيها وشواهدها، انفرط عقد ذكرياتها، وبرزت في مخيلتها حياة الصخب في شوارع كريتر وأزقتها، اجتازت السيارة شارع الملكة أروى لتنعطف يمينا نحو البلدة القديمة، وهنا تلتقي الذكرى مع الواقع، ورغم الحرب والدمار إلا أنها ما زالت على عهدها، فهي مدينة تعافر لتبقى. وصلوا البلدة القديمة، حيث تتداخل الأصوات، موتورات السيارات وأبواقها والباعة الجائلين، وطيور الزينة المنتشرة أقفاصها أمام محلات بيع الطيور، وكما تداخلت الأصوات تتداخل الروائح والألوان. في كريتر تجد متاجر الزينة والعطور والورد والساعات والملابس إلى جانب متاجر بيع اللحوم والدجاج والسمك والخضار، وغيرها، ستلتقط أنفك روائح المطبقية وسيخ الكباب لتتفاجأ بعدها بروائح البخور المنبعثة من مجامر يضعها أرباب متاجر البخور على عتبات المتاجر، وإذا

ترجلت لتعبر شارع الدرج الواصل بين شارع أروى وجولة الفل، لن ينتهي بك المقام إلا وقد تعطرت بشتى الروائح من باعة العطور الواقفين على جنبات الشارع، من فتية وفتيات. هذه المظاهر أخذت وقتا لتعود كما كانت قبل الحرب، وصلا إلى منزل الجدة، ولجت غدير في البدء وعانقت جدتها وقبلتها ولم تتمالك الجدة دموعها، كانت دموعا ممزوجة بالشوق والضعف والتعب، ثم سلم طارق عليها وقبلها في مفرق رأسها ثم طبع قبلة على عروق يدها. جلس الاثنان يتحدثان إلى الجدة ثم فتحت غدير الهدايا أمامهما وكانت جلابية وشالا وحذاء وهاتفا محمولا جديدا بأزرار ملونة بارزة توافق ما تبقى من نظر الجدة، وكرتون صغير به حلويات. سألت غدير جدتها:

- هل أعجبتك الهدايا يا حدتي؟

ردت الجدة بعدة تنهيدة طويلة:

- سلمكم الله أحبائي، هدايا جميلة، ولكن لماذا تخسرون أنفسكم، ما حاجتي بالجديد على الجسم البالي؟ أسأل الله حسن الختام.

- لا يا جدتي لا تقولي ذلك، عيشي والبسي وتمتعي..

ثم ضحكت ممازحة جدتها وأكملت:

- ما زلت شابة...

ضحكت غدير، وضحكت الجدة وقالت:

- يخزي شيطانك، لا أحد يقاوم الزمن وفعله، والحمد لله على كل حال.

علق طارق على الفور:

- يعطيك الصحة والعافية يا جدتي.

ثم همس في أذن غدير:

- تضحكين؟ ظننت أنك قد نسيت الضحك.

لم تجبه بشيء، وظلت تساير جدتها في الكلام، وتتبسط لها وتطيب خاطرها بالكلام اللطيف، وكأنها ترمم ما أحدثته سنوات من الإهمال واللامبالاة في نفس جدتها.

لم يمكثا طويلا عند الجدة، وعندما هما بالانصراف طلبت منهما البقاء معها ولكن طارق لم يوافق متعللا بعائلته، فلم تعارضه غدير مع أنها تفضل البقاء عند جدتها على العودة إلى منزل أهله. وعادا إلى المعلا لينهيا يومهما المرهق بالنوم. وفي ساعة مبكرة استيقظت غدير على جلبة خلف باب الحجرة، وطارق يتململ ثم يعاود النوم، أما هي فلم تتمكن من تجاهل الإزعاج الذي يحدث من صوت الطفلة الباكية وهدهدات أمها لإسكاتها، إلى الشجار الدائر بين رغد وريما، هذه المرة كان بسبب بلوزة رغد التي ملت من البحث عنها ووجدتها في الأخير في سلة الغسيل، حيث لبستها ريما دون علمها، فأيقظتها رغد من نومها لتوبخها على فعلتها، فردت ريما الهجوم بمعايرة رغد على استخدامها عطرها "الماركة" الذي تلقته هدية. وفي وسط كل هذه الضجة لم تجد أم طارق

ساعة تفتح فيها الغسالة غير هذه الساعة لتواكب جريان الماء في الحنفيات، مع وجود التيار الكهربائي، حيث أصبح الماء ضيفا يأتي كل يومين ساعتين على الأكثر، وليس التيار الكهربائي بأحسن حال من تيار الماء، وهذا من تبعات الحرب المشؤومة، ظلت غدير مستيقظة ساعة دون أن تغادر السرير، وعندما انتهت رغد وريما من وصلة الشجار بينهما، تضامنتا الاثنتين ضد تهاني فوجهت ريما الكلام إلى أمها على مسمع من تهاني:

- أمي، قولي لتهاني تجد لها مكانا آخر لتنام فيه، من الصعب أن نكون جميعنا في حجرة واحدة.

وأكملت رغد كلام ريما..

- نعم يا أمي فنحن لا نستطيع الحركة بأريحية في حجرتنا، بحجة أن آية نائمة، ونحن عندما نريد النوم تزعجنا بكاؤها ... هذا ليس عدلا.

وقبل أن تنطق الأم حرفا تدخلت تهاني التي كانت ترمقهما وهي تكز على أسنانها.

- يا لكما من وغدتين، إن كان هناك من يجب أن يجد له مكانا فهو طارق وزوجته، أما أنا فليس لي إلا بيت أبي هل تريدون إخراجي منه؟

قالت أمهم:

- استهدوا بالله يا بنات، البيت يسعنا كلنا.

وفي نفس الوقت خرج أبوهم من حجرته، ولا بد أنه سمع كل شيء كما سمعته غدير، ولكنه لم يعقب بشيء، فالتجاهل هو مبدأه أمام خلافات أفراد الأسرة، لضمان راحة باله إلا إذا تعلق الأمر بشيء يخصه مباشرة، كتأخير الطعام أو عدم كي ملابسه، فسيقيم الدنيا ولن يقعدها، وكل ما قاله:

- أين الفطور؟

فردت تهاني:

- جاهز طبعا، وننتظرك.

كانت غدير تستمع إلى حوارهم، وأيقنت بفراستها أن الكلام موجه لها ولزوجها، فقد كانت أصواتهم عالية رغم أنهم يتواجدون في نفس المكان، ثم إنهم بعد حوارهم المغلف بالاختلاف جلسوا يتناولون إفطارهم يتبادلون أطراف الأحاديث وكأن شيئا لم يكن.

ولما استيقظ طارق شرعت في قولها:

- طارق ... هذا الوضع لا يناسبني، جد حلا.

طارق يفرك عينيه وهو جالس على السرير بجانبها، يقول:

- يا صباح "العكننة"، من أول يوم طلبات.
- ألا ترى؟ ألا تسمع؟
- أرى وأسمع ماذا؟

شرحت غدير ما يضايقها ويعكر صفو مزاجها، وما سمعته من حوارات بين أفراد العائلة، إلا أن طارق لم يكترث، بل إن ردة فعله كانت مستفزة لغدير ، كانت تحدثه وهو يضحك ويقول:

- لا تهتمي، هم هكذا يقولون أي شيء ولكن قلوبهم بيضاء، ستعتادين على ذلك مع مرور الوقت، وربما تصبحين مثلهم.
- لا أريد أن أعتاد، أريد أن أعيش كما أريد أنا، لا كما اختار لي غيري.
- لا تكبري المواضيع، سنتحدث لاحقا.

غدير تواقة إلى التغيير والحياة الرغيدة، لا تريد أن تضيع وقتا بغير إنجاز، فمنذ وصولهما إلى عدن وهي تتحرك في كل الاتجاهات، تتواصل مع معارفها من جهة ومع شركات ومكاتب، وفي نفس الوقت بدأت بالتجارة الإلكترونية وتسويق المنتجات التي أصبحت مهنة من لا مهنة له، فخاضت في ما يخوض الآخرون لتجرب حظها، نفورا من الجلوس في البيت والاستماع إلى مشاكسات أفراده التي لا يملون منها. انقضى شهر وهي ترى

طارق لا يحرك ساكنا، حتى المشروع الذي تحدث عنه آنفا ظهر أنه وهم ولا حقيقة له، فما دار بينه وبين صديقه من نقاشات حول المشروع لم ترقَ إلى أكثر من كونها آمال وتكهنات لم تطبق عمليا على أرض الواقع فذهبت مع رياح التسويف والمماطلة وانعدام الهمة، وكان ذلك مبعثا لتوتر العلاقة بين غدير وطارق، فلم ترض غدير بركونه، ولم يرض هو باندفاعها الحثيث، وميله للتريث والتسويف. آثرت غدير الانتقال إلى منزل جدتها كوسيلة ضغط على طارق والتخلص من الفوضى التي يفرضها واقع العيش في منزل أهله، فعلت ذلك مع اعتراض طارق وإصراره على البقاء في منزل أهله.

من هنا بدأت الهوة تتسع في علاقة الزوجين، كل واحد منهما أصبح له عالمه الخاص الذي لا يعلم عنه الآخر، كانا متفقين أن هذا وضع مؤقت، ولكنهما لم يتفقا إلى متى سيستمر، أو كيف سينهيانه؟

بعد مضي شهر بدأ طارق يشعر بأن الأمر لو استمر على نفس الوتيرة فسيفقد غدير، وهذا ما لا يريده، لا يريد أن تتفلت

منه وهي حلمه الذي طالما حلم به، على كثرة من عرفهن من الفتيات كانت هي مراده ومبلغ آماله، ولم يزده تمنعها في الماضي إلا إصرارا عليها، ولم يزده عنادها إلا إكبارا لها، فهل بعد حصول المنال يدعها تتسرب منه بسهولة؟ بدأ يحدث نفسه بضرورة أن يفعل شيئا لا سيما وأن عائلته كذلك بدأت تضجر من مكوثه في البيت دون عمل، فبدأ يسمع عبارات مثل: "عمرو الثاني" و"يكفينا عاطل واحد" وكلمة "عالة" التي دقت حصن رجولته، من هنا قبل بعمل وجده له أحد معارفه ولم يكن مقتنعا به، لكنه اضطر لقبوله على مضض، على قول والده "أحسن من لا شيء". ذهب إلى غدير في أول يوم داوم فيه، وأخذ بمراضاتها بالكلام اللين والاستعطاف ولم ينس أن يأخذ معه البيتزا التي تحبها، ووعدها بأن يستأجر شقة لهما في غضون أسبوع على الأكثر، لم يكن يعلم كيف سيتم ذلك ولكنه قرر أن لا يعود من بيت جدتها خائبا فشطح في وعوده كي تصدقه وتثق به من جديد، وفي حقيقة الأمر لم يكن راتبه الذي يتقاضاه ليكفي مصروفات نصف شهر، ليس ذلك فحسب فقد وعدها بنزهة يوما كاملا بليلته في أحد منتجعات عدن تختاره هي، فلانت له غدير وقررت إعطائه فرصة.

ذهب طارق وغدير إلى منتجع يسمى 'الفيل' يقع على الساحل الذهبي غرب كريتر، ليقضيا فيه يوما وليلة، وكان الانطلاق في الساعة الحادية عشرة صباحا، وبينما هما في السيارة منسجمان في تبادل الحديث بينهما، رن هاتف طارق المحمول فألقى نظرة ليلمح رقما لا يحمل اسما ثم أقفل المكالمة دون رد. سألت غدير:

- من كان المتصل؟

- ليس مهما، أنا اليوم متفرغ لك وحدك.

ضحكت غدير ولم تكترث، وواصلا طريقهما، وبعد دقائق بدأ صوت إشعارات الهاتف يتتابع، آثر طارق أن يقرأ الرسائل:

"لم لا ترد على مكالماتي؟"

"أريد مقابلتك حالا"

"ستندم إن استمررت في تجاهلي"

لاحظت غدير تغير وجه طارق فسألته:

- ماذا هناك؟ خير...

- كل خير يا حبيبتي لا شيء مهم.

ثم حاول إخفاء ارتباكه بضحكة خفيفة قائلا:

- أرأيت؟ لا يستطيعون العمل بدوني في المكتب.

وصلا إلى الشاليه الذي حجزه طارق في المنتجع وبينما كانت غدير تفرغ أشياء من الحقيبة، رن هاتف طارق مجددا، فرد قائلا:

- لحظة واحدة...

ثم قال لغدير:

- إنه موظف الاستعلامات، سأرى ماذا يريد وأعود سريعا.

- حسنا، لا تتأخر ...

خرج طارق وابتعد عن الشاليه حيث إقامتهم ثم استأنف حديثه في الهاتف بنبرة حادة:

- ماذا تريدين؟

- أريدك أنت.

- ألم نتفق أن ما بيننا انتهى وكل منا يذهب لحاله؟

- متى وافقتُ على ذلك؟ ... المهم أريد رؤيتك لنتحدث.

- لا حديث بيننا، ورجاء لا تتصلي مرة أخرى.

أنهي طارق المكالمة دون انتظار رد على جملته الأخيرة، فعاودت الاتصال فتجاهلها، وعندها أرسلت له رسالة: "لو تجاهلتني ستندم"

إنها سالي، فتاة كان يعرفها قبلُ في الماضي، انقطعت علاقتهما منذ سفره إلى القاهرة، كان يعدها فتاة مثيرة، لكنها لم

تكن خياره في الزواج، رغم أنها فتاة مطواعة محبة للبساطة وتشبهه في كثير من طباعه، فهي ذات دعابة تعيش حياتها كل يوم بيومه، لا تحمل هم غدها. تعيش سالي مع أمها وأبيها حياة هادئة، والاثنان يعملان في وظيفتين حكوميتين وليس لهما من الأبناء غيرها، ومنذ تخرجها من كلية اللغات لم تصمد في وظيفة فهي ملولة وتستأثر النوم والراحة على الاستيقاظ المبكر، وعدوها الأول الالتزام بالوقت.

لم تقبل سالي وهي الفتاة الجميلة الأنيقة أن تُرفض وتهمش، فتحولت من بركان إثارة إلى بركان غضب، شرعت في ملاحقته كظله، لتحول لحظاته السعيدة مع غدير إلى قلق وارتباك.

عاد إلى غدير وهو يتحدث عن جمال المكان ومواضيع متداخلة محاولا إخفاء ارتباكه، ولكن غدير لم تكن ساذجة، شعرت بأن هناك أمرا يخفيه، ولم تبدِ ذلك لطارق، وبدأ كل واحد منهما يظهر للآخر استمتاعه بالوقت.

مساءً في الهواء الطلق بين الشاليه والبحر والسماء يزينها القمر ونجمات خافتات أطللن على استحياء، جلسا يتناولان العشاء ويتهامسان تماهيا مع الجو الباعث للرومانسية... ثم عادا إلى الشاليه يستكملان ليلتهما.

في صباح اليوم التالي استيقظا وبدأ كل واحد منهما بتفقد هاتفه، فقد اتفقا في الليلة الماضية على إقفال هواتفهما لينعما بأجواء رومانسية دون إزعاج من أحد، وبعد أن ألقت غدير نظرة على الرسائل الواردة خيم عليها الصمت برهة ثم كزت على شفتيها ودموع في عينيها تحاول خنقها.

- ماذا هناك يا حبيبتي؟

لم تجبه وظلت تنظر إلى هاتفها وقد انسابت الدموع على خدها، فأخذه من يدها وشاهد ما كانت تنظر إليه، إنها صورته مع سالي وهما يجلسان على الشاطئ وتحتها عبارة "حبي الأول والأخير" 'لقد بدأت سالي بحماقاتها'، هذا ما قاله طارق في نفسه،

ثم حاول ضم غدير إليه فدفعته، فتوقف عن ذلك وقال لها: "سأخبرك بالحقيقة".

- هذه تدعى سالي... كنت أعرفها قبل الزواج... بدأت علاقتنا وانتهت قبل أن أتعرف عليك...

ثم وضع يده على كتفها...

أزاحت غدير يد طارق من على كتفها وما تزال دموعها تنهمل دون صوت لبكاء، وطارق مستمر في حديثه.

- أريد أن تثقي بي، أنا أحبك كثيرا ولن أتخلى عنك.

مسحت عينيها وخديها، وما تزال تشيح بوجهها عن طارق.

- إنها لا تعني لي شيئا، صدقيني.

يمسك كفيها بكليتي يديه ثم يواصل.

- هي لا تريد أن تتركني وشأني... تريد أن تخرب علينا سعادتنا... لا تمنحيها الفرصة.

تنظر غدير في عينيه وتقول:

- لمَ لمْ تخبرني من قبل؟

- ظننت أن بإمكاني حل المشكلة دون إزعاجك.

أخذت غدير نفسا عميقا ثم قالت بهدوء:

- والآن وقد علمت، ماذا ستفعل؟

- لا تحملي هما ولا تلقي لها بال.. صدقيني ستمل وتتوقف..

واتفقا على تجاهل ما تقوم به سالي، وبعدها غادرا المنتجع، فأوصل طارق غدير إلى منزل جدتها وذهب هو إلى منزل أهله. وفي اليوم التالي خيبت سالي ظن طارق وعادت إلى إرسال الصور والرسائل الاستفزازية، ملت غدير من التجاهل، ولم تمل سالي وعندها ثارت غدير وقالت:

- طارق ... لن أظل صامتة حيال تلك الفتاة ... سأجعلها تندم على اليوم الذي فكرت فيه مضايقتي.

- لا لا يا حبيبتي ... اهدئي قليلا، سأتولى الأمر أنا، دعيني أتصرف، لا تفعلي شيئا دون علمي.

- أراك خائفا عليها..

- ليس خوفا عليها، من أين أتيتِ بهذا، لم لا تقولي خوفا عليك من المشاكل؟

- لم أخشى أحدا من قبل، لأخشى فتاة كهذه؟

- حسنا، أعطني فرصة لأحل المشكلة.

اتفق طارق مع غدير على أن يذهب إلى سالي ويهددها حتى تكف عما تفعل، ثم طلب من سالي المقابلة في مكان عام، فأخبرته أنها ستنتظره في حديقة صيرة، وهي منتزه في كريتر على البحر الذي تحمل اسمه والقلعة التي تطل عليه من قمة الجبل، لم يكن عبثا اختيار سالي لذلك المكان، فقد شهد ذكريات جمعت بينهما فيما مضى. عزم طارق على أن يتحدث إليها بصرامة ونبرة تهديد، حتى تكف عما تفعل، ويتحاشى ثورة غدير، فلما أصبح

بمواجهتها ورآها وهي تجلس على مقعد طويل بمحاذاة سور قصير يظهر خلفه البحر وما وراءه، تقدم إليها ببطء وألقى التحية بنبرة هادئة فردت التحية وهي تنظر إليه تكاد لا ترمش بجفنيها، ثم جلس على نفس المقعد مبتعدا قليلا وقال بنبرة تقريرية وكأنه تلميذ يسمع الدرس لمعلمته:

- اسمعي يا سالي، ما كان بيننا انتهى، وأنا الآن رجل متزوج ولا ألتفت لغير زوجتي، باختصار عليك أن تتوقفي عما تفعلينه.

نظرت إليه بابتسامة غير عابئة بمحاولته التظاهر بالجدية والصرامة، حيث لم يفلح بذلك، وبصوتها العذب الذي يضاهي شكلها نعومة قالت:

- هكذا تقرر وحدك إنهاء العلاقة!

ثم تبعد نظرها عنه، وتكمل.

- ليس بهذه السهولة.

- وماذا تريدين؟

تعيد النظر إليه وبنبرة أعلى من قبل تقول:

- قلت لك أريدك أنت.

- وأنا لا أريد العودة إليك، ألا تفهمي... جئت لأفهمك ذلك بعد أن تحدثت إلى زوجتي بكل شيء... وإذا لم تفهمي فلا تلوميني إن تصرفت معك بما لا يليق ...انتهى اللقاء.

أنهى كلامه ثم استدار مغادرا، وسمعها وهي تقول.

- سنرى.

مضى في طريقه تاركا إياها في مكانها دون أن يلتفت، وعندما وصل إلى بوابة الخروج مسح على جبينه وحاول استراق النظر إلى مكان جلوسها فرآها ما تزال على وضعها جالسة تنظر تجاهه، ثم واصل طريقه.

مضى أسبوعان كاملان لم يحدث فيهما شيء فسأل طارق غدير ليتأكد من الأمر:

- هل وصلك شيء من تلك الفتاة؟

- لا ... يبدو أن لقاءك بها قد أثمرت نتائجه.

- الحمد لله... تخلصنا منها.

بعد أسبوع من الصلح بينهما انتقلا إلى شقة تملكها صديقة لغدير سافرت هي وعائلتها وعرضتها على غدير بمبلغ إيجار أقل من القيمة المتعارف عليها بكثير، رغم غلاء الإيجارات غير المتوافق مع مرتبات الموظفين، ولكنها من جهة أحبت التعاون مع صديقتها ومن جهة أخرى لضمان المحافظة على الشقة من السطو والبسط الذي طال كثير من الشقق المغلقة التي سافر ملاكها عقب الحرب، فرب ضارة نافعة، ومن هنا اجتمع شمل طارق وغدير من جديد وتنفس طارق الصعداء فلم يكن يعلم كيف سيفي بوعده الذي قطعه على نفسه يوم أن جاء ليصالحها، ولكن

الأقدار كانت في صفه هذه المرة، وكانت غدير قد جمعت شيئا من المال فابتاعت به سيارة يستخدمانها الاثنان حسب حاجتهما.

في هذه الأيام التي كان يحاول الزوجان ترميم العلاقة بينهما، وعلى وجه التحديد كانت غدير في مرحلة المراقبة لطارق؛ لترى كيف يبلي في سبيل مستقبلهما، في هذا الوقت تلقت غدير مكالمة من صديقة قديمة كانت زميلة الدراسة الثانوية، ولم تلتق بها منذ ذلك الوقت، اسمها لمياء، أعادت المكالمة إلى غدير الحنين إلى تلك الأيام، واستعادت مع لمياء ذكريات قد طواها النسيان مع الوقت وتزاحم الانشغالات، ولم تخف غدير استغرابها من هذه المكالمة التي جاءت بعد كل هذه السنوات فقالت للمياء.

- ولكن ما الذي ذكرك بي بعد كل هذا الوقت؟

- كنت انظر في ألبوم الصور وكانت هناك صورة تجمعنا أنا وأنت وأحلام ومنال وأمنية وهيفاء، التقطناها في آخر يوم في المدرسة، أتذكرين؟

- نعم ، تذكرت.

- فشعرت بالحنين لجمعتنا، ففكرت أن أتواصل معكن لنجتمع مجددا ونتبادل أخبار بعضنا.

- وهل تواصلت مع البقية؟

- بالطبع... وقد أعجبتهن الفكرة كثيرا... ما رأيك؟

- تحمست لذلك... ولكن سأتحدث إلى زوجي ثم أؤكد لك مجيئي.

لم يمانع طارق في أن تذهب غدير للقاء صديقاتها القديمات، وأخبرتها لمياء بعد ذلك أنهن سيلتقين في منزلها فأعطتها العنوان، لأن غدير لم يحدث أن زارت لمياء في بيتها من قبل، وكان الموعد في الخامسة عصرا من اليوم التالي.

اتفقا على أن يوصل طارق غدير إلى منزل لمياء، ثم يذهب لمقابلة صديق له، والعودة بعد ذلك ليأخذها، وصلا إلى العنوان المحدد وكان منزلا مستقلا في شارع فرعي، وعندما همت غدير بالنزول من السيارة قال لها طارق:

- بعد أن تدخلي أعلميني أن الأمر على ما يرام حتى أذهب وأنا مطمئن.

- حسنا... سأكتب لك رسالة حينها.

- ومتى أعود لأخذك؟

- لا أدري أشعر أن اللمة ستكون ممتعة وسيأخذنا الوقت... سأتصل بك بعد ساعة وأخبرك.

نزلت غدير من السيارة ووقفت أمام الباب وبينما هي تضغط على زر الجرس كان طارق يحرك السيارة لركنها بجانب الطريق، لينتظر رسالة الاطمئنان قبل أن يغادر. فُتح الباب وإذا بلمياء تقف مرحبة فولجت غدير وتبادلتا العناق، ثم أجلستها لمياء في حجرة الضيافة ولم ترى أحدا غيرها، فقالت لها:

- أين البقية؟

- لم يصل أحد بعد، لا بد أنهم في الطريق.

فارسلت لطارق "استقبلتني لمياء...وليس هنا غيرها ... نحن في انتظار البقية... اطمئن" ثم سألتها عن والدتها:

- أين أمك؟

- آه ... أمي؟ ... إنها في زيارة لأقاربها في القرية...

أحضرت لمياء عصيرا ثم قالت وهي تغادر الحجرة:

- تفضلي اشربي العصير ...خذي راحتك سأعود حالا.

قرأ طارق رسالة غدير وهم بتحريك السيارة ثم توقف حين رأى الباب يُفتح إذ خرجت منه فتاة وغادرت، فاتصل بغدير على الفور.

- غدير... من تلك التي خرجت من المنزل؟ ألم تقولي لا أحد سوى لمياء؟

- ما الذي تقوله؟

وخرجت غدير في تلك اللحظة إلى الصالة الخارجية تنادي لمياء، ولم تسمع ردا، فكررت لمياء ... لمياء... وعندما لم تجبها شعرت بالقلق، هرولت نحو الباب فتحته وإذا بطارق أمامها وهي توشك على السقوط لشعورها بالدوار، فأسندها وتوجه بها إلى السيارة.

- ما الذي يحدث؟

- لا أعلم ...أشعر بالدوار.

- هل تناولت شيئا.

- العصير ...آه إنه العصير.

- إنها مكيدة... غير مفهوم ما يحدث.

ذهب طارق إلى المستشفى لمعاينة حالة غدير، وبدا أنها تناولت مادة منومة، فاستدعى المحقق، ووجه للمياء تهمة استدراج

وتنويم غدير، ولكن لمياء أنكرت تماما أنها التقت بغدير كما أنكرت معرفتها بذلك المنزل، حتى الرقم الذي تواصلت به مع غدير كان مسجلا باسم مجهول. لا يوجد أي دليل ملموس لإدانة لمياء فأخلي سبيلها. أما ذلك المنزل فظهر أن صاحبه مهاجر منذ عدة سنوات، ولم يتوفر أي إثبات بتواجد أحد فيه في ذلك اليوم، فأغلق الملف.

منذ ذلك اليوم أصبح طارق يشعر بالقلق على غدير، والخوف من أن يكون الأمر له علاقة بسالي كما تقول له غدير، وزاده قلقا عندما وجد ورقة ملصقة على السيارة مكتوب فيها "ترقبوا المزيد" فدار في خلده أنها حركات سالي.

في الساعة الخامسة من صباح أحد الأيام استيقظ طارق وغدير مذعورين إثر جلبة تحدث في الشارع ومجموعة من الناس ينادون بصوت عال: "طارق... يا طارق... سيارتك تحترق" نظر طارق من الشرفة ليرى السيارة قد التهمتها النيران وأحدهم يقوم بإطفاء الحريق، نزل مسرعا وبيده طفاية الحريق ليكمل إخماده، أما السيارة "فعلى الله العوض" كما ينبئ واقع الحال. في هذه المرة اتهمت غدير سالي مباشرة، وعند التحري عنها اتضح أنها غادرت

عدن إلى حضرموت منذ أسبوع قبل الحادث. وعادت بعد مضي شهر ولم تثبت إدانتها. واستمرت التهديدات تصل إلى هاتف غدير من أرقام مختلفة، وكلما وصلها تهديد تتهمه بأنه السبب وأن كل ما يحدث معها من تحت رأسه، فهاتف طارق سالي ليتفاهم معها، ولكن سالي لا تجيب على مكالماته وتتجاهلها، وفي نفس الوقت تصل كل يوم رسائل تهديد لغدير، وهنا بدأ طارق يفقد صوابه حيال سالي، وفكر بتخويفها بالقتل، فجلب مسدسا وألقمه الرصاص وخبأه في دولاب الملابس حتى يأتي يوم التنفيذ، واكتشفت غدير وجود المسدس فخافت وعندما عاد طارق إلى البيت تحدثت معه بوجل:

- لقد رأيت المسدس، ما الذي تنوي فعله؟

- لا شيء.

- كيف لا شيء؟ ... وهذا المسدس؟

- علي أن أحميك ونفسي من تلك المتهورة، إنها غير متزنة، ومن الممكن أن تجرها عاطفتها لارتكاب حماقة.

- ولكن ليس بهذه الطريقة، هكذا سأفقدك إلى الأبد... فأين الحماية؟

- لا تقلقي دعي الأمر لي، على كل حال هو مجرد تخويف، لن أتهور، سأطلق بضع رصاصات في الهواء لإخافتها.

أرسل طارق لسالي رسالة ورقية عبر أحدهم يخبرها بضرورة المجيء إلى الحديقة لمقابلته، وحدد لها الساعة الخامسة عصرا، وذهب لينتظرها على الموعد فوجدها قد سبقته، طلب منها أن يذهبا إلى مكان آخر بعيدا عن أعين الناس؛ لأنه يوم عطلة الأسبوع والحديقة مكتظة بزوارها، فسرها ذلك ولم تمانع، بل إنها سألته:

- هل ستأخذني إلى مطعم؟

- لا تستظرفي، أريد أن نتفاهم بعيدا عن أعين الناس.

فأخذها بالسيارة إلى مكان خال قرب ساحل أبين، وهو شاطئ طويل تمتد عليه المنتزهات والمنتجعات وهناك مساحات

ظلت خالية إلا من الرمل والصخور وأمواج البحر، أوقف السيارة ونزل منها وطلب منها النزول فنزلت، وكان يبدو عليها الارتياح وكأنها في نزهة، فشرع بتوجيه الكلام لها قائلا:

- ألست خائفة مني؟

أجابته بصوتها العذب المبحوح:

- لا ... مم أخاف؟

- وما الذي يجعلك مطمئنة؟

- لأنك تحبني... وهل تخاف الحبيبة من حبيبها؟

قهقه وهو يضرب كفيه ببعضهما.

- يا لك من بائسة... بل مريضة.

- قل ما تشاء، أعلم أنك تحبني.

- لم تفعلي كل ذلك؟ لم لا تلتفتين إلى حياتك؟

- أنت حياتي...

- ما زلت أريد أن أعطيك فرصة، إذا أثبتّ أنك تريدين فرصة لتراجعي نفسك.

- وإذا لم أراجع نفسي؟

أخرج مسدسه وصوبه نحوها ثم قال:

- سيكون الحل بهذا.

- لست خائفة...

- لا تستفزيني أكثر من ذلك.

صمتت واقتربت منه أكثر وكأنها لا ترى المسدس، وثبتت عيناها في عينيه، وظلت تحملق فيه، وهو ما زال يصوب المسدس نحوها ثم قالت:

- لم لا تضغط على الزناد؟

أنزل المسدس واستدار قليلا وقال:

- لا أريد أن أقتلك... أريدك أن تعيشي ولكن بعيدا عني.

ردت عليه وقد بدا شيء من الحزن في نبرتها:

- لم أعد أفهمك، تطلب مني أن أتركك وشأنك، وعندما حاولت الابتعاد، وأرغمت نفسي عليه، لم تدعني وظللت تمطرني بالمهاتفة، وها أنت تطلب مقابلتي، ثم بعد هذا تهددني، ما الذي تفعله؟

تحولت للوقوف أمامه وبابتسامة خفيفة وصوت هامس قالت:

- الآن أنا على يقين أنك ما زلت تحبني.

علا صوته قليلا وهو يقول:

- أنت لست طبيعية، أنت مريضة.

- أنت السبب.

- وماذا أفعل لك الآن.

- خذني إليك، أوقل لي كيف أعيش بدونك.

- لا أستطيع أيا من ذلك.

اقتربت منه أكثر وبلحظة خطفت المسدس من يده، وابتعدت.

- ماذا ستفعلين أيتها المجنونة؟!

وضعت المسدس بمحاذاة رأسها، وقالت:

- سأتولى الأمر بنفسي.

وضغطت على الزناد وهي تقول عبارتها مغمضة عينيها، ثم فتحتهما، ولم يحدث شيئا، اقترب منها وخطف المسدس وحاول إطلاق الرصاص في الهواء فلم تخرج منه طلقة واحدة، وعندما فتح مخزنه، لم يجد فيه الرصاص. ضحك عندها ضحكة ممزوجة بالسخرية والغضب ومشاعر أخرى لا يدري ماهي، وقال:

- آه منك يا غدير.

- إنها تحبك كثيرا، لا تريدك أن تكون قاتلا.

- وأنت كذلك، ما أردتِ أن أكون قاتلا.

مدت سالي بصرها نحو الأفق، وترقرقت الدموع في عينيها لتنهار على خديها، اقترب منها طارق وسألها بحنو:

- أتبكين؟

- هذا دأبي منذ تخليت عني، ولكني أكابر، ولا أظهر إلا ابتسامتي.

- سامحيني يا سالي.

تمتمت بكلام غير مفهوم.. فتساءل قائلا:

- ماذا؟

- سامحتك... وأنت كذلك سامحني.

– فعلت منذ رأيت دموعك. رغم أنك أفقدتنا سيارتنا وكدتِ أن تتسببي بكارثة لزوجتي.

تنظر سالي إليه بتعجب.

– عم تتحدث؟ أي سيارة؟ أنا لم أفعل شيئا لزوجتك سوى إرسال صورنا، أتعد ذلك كارثة؟

– يبدو أن الأمر ليس كما يظهر.

جلس طارق على إحدى صخور الشاطئ وطلب منها الجلوس على أخرى فجلست، ثم أخبرها بما حدث مع غدير وسألها عن لمياء، فأقسمت له أنها لا تعرف شيئا عنها، ولكنها وعدته أن تساعده في كشف الحقيقة، فكل ما في الأمر أنها حاولت استرجاع علاقتهما، فلما يئست من ذلك قررت الابتعاد، فلم ترد على مكالماته لها، واكتفت بالاحتفاظ بمشاعرها من طرف واحد.

عندما عاد طارق إلى المنزل أخذت غدير تتفرس في ملامحه، فقد خرج بوجه غضوب وعاد وقد بدا عليه الارتياح، فبادرته بالسؤال:

- أراك عدت بغير الوجه الذي خرجت به.

- انتهى كل شيء، عليك أن ترتاحي ولا تقلقي.

ارتسمت على وجهها علامات الحيرة وهي تقول.

- ما الذي انتهى؟

ضحك طارق وقال:

- تخلصت منها، أطلقت عليها ست رصاصات، ودفنت جثتها وعدت.

- كاذب لم تقتلها.

- وما الذي يجعلك متأكدة من ذلك؟

- أفرغت الرصاصات بنفسي.

- ولم فعلت ذلك، هبي أني كنت في موقف خطير، واعتمدت على المسدس للدفاع عن نفسي.

- لم يكن ليحدث ذلك... والحمد لله ربنا سلم.

- المهم يا عزيزتي لن يكون هناك أي مضايقات من سالي بعد الآن، بل وسوف تساعدني في كشف حقيقة لمياء، إنها بريئة، لم يكن لها أي علاقة بها ولا بحرق السيارة.

- أعلم ذلك...

تفاجأ من رد غدير فاقترب منها وحدق في وجهها وسألها.

- وكيف علمت؟

- هناك أمر لا أعرف كيف أقوله لك.

- قولي دون مقدمات.

- هناك من يهددني.

- ليس سالي بالطبع.

- أجل...

- إذن تكلمي.

وتكلمت غدير عن سر العداوة بينها وبين ندى، التي بدأت عندما كانت ندى زميلة فارس في الدراسة الجامعية، وكان فارس مثل اسمه فارسا لأحلام ندى، ولا تنفك تتقرب منه، وكان في بداية الأمر يميل إليها شيئا ما، أو ربما يجاريها في تعلقها به، إلى أن جاء اليوم الذي تعرف به فارس على صديقة غدير مها، عندما حضر حفل تخرج غدير من الجامعة فالتقى بها، ومن يومها وهو يتحدث إليها، ثم توسط لها للعمل في شركة قريبه، وتطورت العلاقة بينهما فخطبها قبل المغادرة إلى مصر، ومن هنا جن جنون ندى واتهمت غدير بأنها أفسدت العلاقة بينها وبين فارس، وحطمت آمالها، وأنها السبب في ابتعاد فارس عنها لصالح صديقتها، وتوعدتها أن تنتقم منها عندما تواتيها الفرصة. واستغلت ندى عدم معرفة غدير بالقرابة التي بينها وبين لمياء التي كانت زميلة غدير في المرحلة الثانوية، فاستعانت بها لتنفيذ خطة

الانتقام، فرسمت الخطة وطلبت من لمياء تنفيذ الجزء الأول منها، دون إعلامها ببقية الخطة.

كانت مهمة لمياء استدراج غدير لمنزل أحد أقارب ندى وكان مهاجرا ولديها مفتاح المنزل، وبعدها تقوم لمياء بتنويم غدير عن طريق وضع كمية من المنوم في العصير ثم مغادرة المنزل، وهنا ينتهي دور لمياء الذي نجحت فيه.

وكانت ندى قد اتفقت مع أحد المأجورين بالقدوم إلى المنزل في اللحظة التي تغادر فيها لمياء، ولكن عدم مغادرة طارق من أمام المنزل حال دون إتمام الجزء الثاني من الخطة.

عندما فشلت خطة ندى جن جنونها، ومن غيضها أرسلت أحد المأجورين لإحراق السيارة. ولم تتورع من إخفاء ما خطتها، بل وصلت بها الجرأة أن تتصل بغدير وتخبرها ما كانت تنوي فعله حتى تخيفها وتعيشها في رعب، وهددتها بأنها لن تكتفي بحرق السيارة مستغلة الاضطراب الأمني الذي جعل ذوي النفوس

الضعيفة يخرجون أسوأ ما في نفوسهم من خبث لم يكونوا ليجرؤوا عليه من قبل، هكذا النفوس إذا لم تجد رادعا فسدت، وإذا أمنت العقوبة طغت وتجبرت، ومن لا يقومه الأدب يقومه العصا، فكيف إذا غاب الأدب وكسرت العصا.

وبعد أن أخبرت غدير طارق بكل ما حدث أمسك طارق على رأسه، وقال:

– وأنا الذي أنبني ضميري طوال الوقت، ظنا مني أنني السبب في كل ما يحدث، لعلاقتي السابقة بسالي.

ظلت غدير صامتة تنظر إلى طارق كمن ينتظر نتيجة مصيرية.

– ولماذا لم تخبريني في الوقت المناسب وجعلتني أشك بسالي؟

– لم أكن أعلم أن ندى وراء المشاكل إلا بعد أن غادرت المنزل حينها تلقيت اتصالا منها.

- وماذا لو تهورت وقتلت سالي؟

- قل ذلك لنفسك، وعل كل حال فقد أفرغت المسدس، ولو أردت قتلها لكان يكفيك أن تطبق بكفيك على رقبتها لتموت.

- هل تظنين أن ذلك من الممكن حدوثه؟

- أعلم أنك لن تكون قاتلا من أحببتها يوم ما.

قالت ردها بنبرة تنم عن عدم راحة، ثم سادت لحظات صمت ووجوم ثم تكلم طارق قائلا؛

- كان عليك مهاتفتي فور انتهاء مكالمة ندى.

- أردت أن تنهي المشكلة المتعلقة بسالي، حتى نتفرغ لندى.

- لا تقلقي بشأن سالي فهي فتاة عاطفية لا تضمر شرا، أما ندى سنبلغ عنها الشرطة.

– لن يُجدِ التبليغ عنها، فقسم الشرطة أضحى يحتاج إلى شرطة لنجدته ... ألا ترى حال البلاد؟!

– صدقت ... ولكن ما عسانا نفعل لهذه المعتوهة؟ ... أفكر في التخلص منها.

– إذا أعدنا الرصاصات إلى المسدس سنتحول إلى مجرمين لأسباب تافهة.

– معظم ما حولنا من فوضى أسبابها تافهة، من كان يتخيل أن امرأة تقتل أخرى لمجرد معايرتها لها، أو أخ يذبح أخاه طمعا ببضعة أمتار من الأرض.

– نريد أن نعيش يا طارق... كفانا ضياعا، لم ننتهِ من معاركنا مع أنفسنا لنفتح جبهات حولنا، إننا إن بقينا هنا فسنظل ندور في خلقة مفرغة، ولن نحقق شيئا.

– إلى ماذا ترمين؟

– الهجرة ...

– لا لا ... اصرفي نظرك عن موضوع الهجرة، أنا بالكاد أتدبر أمري هنا، لا تحمليني ما لا طاقة لي به.

– بقاؤنا في عدن والحال هذه ضرب من الانتحار.

– وما بها عدن؟ جريان الحياة ما زال متدفقا، وعاد كل شيء كما كان وأحسن، أي شيء يخطر ببالك ستجدينه هنا.

– وما فائدة أن نجد كل شيء ولا نجد أنفسنا؟ وما فائدة أن تتوفر كل الأشياء ونعجز عن امتلاكها؟

– أنا أتحدث بشكل عام.

– وأنا أتحدث عني وعنك، دعنا نحاول في مكان آخر، لسنا أشجارا لنقبع في أماكننا دون حراك، علينا أن نفكر بجدية في مستقبلنا ومستقبل أولادنا، نحن الآن لا نفكر أبعد من وجبة طعام ليومنا الحالي.

– لن أخاطر في المغادرة من البلاد، الله أعلم ما ينتظرنا في حال غادرنا، أنا لن أغادر.

– وأنا لن أبقى.

ساد الصمت دقيقة ثم تظاهر طارق بالانشغال إثر رسائل وصلت إلى هاتفه ثم قال:

- سنتحدث لاحقا، علي الذهاب الآن لدي ما أفعله في الخارج.

لم تعلق غدير على كلامه، تركته يغادر المنزل وفي حلقها كلاما محبوسا، وظنونا تتقافز في مخيلتها. انقضت ساعات من الفراغ، فراغ من كل شيء، من الحركة من التفكير من الخيال، ثم نظرت حولها كأنها عادت من متاهة، وأخذت نفسا عميقا وعمدت إلى مفكرتها وأمسكت بالقلم لتصب مداد خواطرها، مرت الدقائق وهي ممسكة بالقلم حيرى من أين تبدأ؟ وحين أوشكت على كتابة أول كلمة سمعت صوت الباب عند دخول طارق فتوقفت، جلس بجانبها وقال محاولا تلطيف الجو:

- ماذا تكتبين أيتها الجميلة؟!

ردت غدير بنبرة حازمة، تنم على أن الأمور قد حسمت لديها:

- كنت محتارة من أين أبدا خاطرتي، على كل حال سأكتب لاحقا، علينا أن لا نؤجل حواراتنا بعد اليوم، لنستأنف حديثنا الذي غادرت قبل أن ننهيه.

- إني نعسان الآن، ليس وقتا لحسم الأمور، لم العجلة؟

- بل كان علينا أن نحسم هذا الأمر قبل زواجنا.

- هل تقصدي أننا تسرعنا في الزواج؟

- كان خطأ كبيرا أن نؤجل حواراتنا فيما اختلفنا فيه إلى بعد الزواج.

- يعني أن زواجنا كان غلطة؟

نظرت إليه بابتسامة ممطوطة وكأنها تذكرت شيئا.. ثم قالت:

- غلطة؟ ممم ليس زواجنا فحسب ... مجيئي إلى الحياة كان غلطة لأحدهم.

- ماذا تقصدين؟

- لا عليك ... ليس هذا موضوعنا الآن، فلنتحدث بما يهم.

وبينما يحاول طارق التملص والهروب من نقاش لن يكون في صالحه، فتح هاتفه وكان قد أغلقه إثر مغادرته المنزل، فإذا به يرن، فرد بسرعه لأن أخته تهاني من كانت تتصل، ونقلت إليه خيرا مفزعا، إن عمرا في المشفى لتلقي العلاج إثر تناوله أقراصا من الأدوية بغية التخلص من حياته، فهرع بعدها طارق إلى مشفى خليج عدن الأقرب إلى منولهم، حيث يتواجدون هناك، وفي غضون دقائق وصل ليجد أفراد الأسرة إلى جانب عمرو ما عدا تهاني؛ مكوثها مع طفلتها لم يمكنها من مرافقتهم. في ذلك الوقت كان قد زال الخطر عن عمرو واستقرت حالته، وعندما أقبل عليهم طارق انهالوا عليه بالأسئلة لأن هاتفه كان مغلقا مدة طويلة ولم يتمكنوا من الاتصال به في وقت وقوع الحادث، فاعتذر لهم معللا

ذلك بعطل طرأ على هاتفه، اضطر إلى هذه الكذبة لتدارك استيائهم، فلو أخبرهم أنه تعمد إغلاق هاتفه لن يعجبهم الأمر. كانت هذه المرة الأولى التي يحاول بها عمرو الانتحار رغم أنه يعاني الاكتئاب منذ فترة ليست بالقصيرة، وهذا ما حير عائلته، فهم قد اعتادوا عليه منطويا على نفسه، وأن هذا آخر شيء من الممكن أن يحدث معه، وتعايشوا معه كأمر واقع بعد أن نفدت الحيل لإخراجه من عزلته. كان عمرو مستيقظا ينظر إلى الفراغ أمامه وهم حوله منهمكون في حوارات جانبية متفرقة، بعد أن اطمأنوا على حالته وأخبرهم الطبيب أن بإمكانه مغادرة المشفى صباح الغد، مكثوا إلى قرابة الواحدة فجرا ثم عادوا إلى منزلهم وظل طارق مرافقا لعمرو إلى الصباح التالي ليستكمل علاجه حتى يعاينه الطبيب ويسمح له بالمغادرة. ومنذ أن وصل طارق المشفى وحتى المغادرة وغدير على تواصل مستمر للاطمئنان على حالة عمرو، وكانت حاضرة في منزل عائلة زوجها عند عودته وأخيه من المشفى.

عمرو

من يعرف عمرو في الماضي لن يصدق أن هذا الشاب النحيل غارق العينين الشارد في الفراغ، هو نفسه ذاك الشاب ذو الجسد الرياضي المفعم بالحيوية والنشاط والطموح والكثير من الحب، كان بكر العائلة ومحط الاهتمام الأول، وعليه بلغت الآمال ذروة سنامها. في أول سنة من دراسة المعمار في كلية الهندسة أحب زميلة له من نفس الدفعة تدعى حنين، وحين تأكد من مبادلتها له نفس المشاعر، أخبر عائلته عنها وعن رغبته في خطبتها مع تأجيل الزواج إلى بعد التخرج والعمل، لم تمانع أسرته ولكن نصحه أبوه بعدم التسرع وقال له حينها أن الوقت أمامه ليختار شريكة حياته بروية، فعلام العجلة؟ ولما رأوه متمسكا بها، عازم بجد على الارتباط بها، تركوه على هواه، فلما أمن جانب أهله وموافقتهم، تشجع لمفاتحة حنين بما يرغب، فلما عرض عليها الأمر لم تبد ارتياحا أو حماسا كما كان يتوقع، فكان رد فعلها مخيبا لآماله قالت له:

- لقد فاجأتني ...

- ولكنها مفاجأة سارة، أليس كذلك؟

- نعم، ولكن ليس هذا وقته، أمامنا سنوات دراسة، علينا أن لا ننشغل عن مستقبلنا.

- مستقبلنا هو واحد، لم لا نمضي إليه معا؟ ولن يكون هناك شيئا إضافيا نفعله، كل ما في الأمر أن نضفي على علاقتنا صفة رسمية فلا يطولنا كلام الآخرين.

قالت وهي تهز رأسها..

- لا يهمني كلام الآخرين.

- هل أفهم من ذلك أنك ترفضين الارتباط بي؟

- لا أرفض الارتباط، ولكن ليس الآن، الأمر سابق لأوانه كثيرا.

سكت عمرو متفكرا وقد بدا عليه العبوس، ثم قال:

- حسنا ... كما تريدين سنؤجل إلى الوقت المناسب.

انصرفا بعدها إلى قاعة المحاضرات، ولم يتمكن عمرو من التركيز على ما يقال في المحاضرة لانشغال ذهنه بما دار بينه وبين حنين، هو لم يضع في اعتباره أن ترفض مطلقا، كان يظن أنها تفكر مثله وسوف تطير فرحا بما قاله، ولكن يبدو أن مشاعره طاغية على تفكيره بينما هي يقودها عقلها، وقد رسمت لنفسها طريقا لا يتأثر بنزوع العاطفة، كهذا كان عمرو يحدث نفسه، فكان صوته الداخلي صاخب في رأسه حجب عنه صوت المحاضر، في خضم ذلك انتبه إلى الطلاب يغادرون القاعة وقد غادرها المحاضر قبل ولم ينتبه لذلك، فانطلق عندها إلى خارج القاعة يبحث عن حنين فلمحها تقف مع مجموعة من الفتيات يتحدثن في الساحة قبالة البوابة الخارجية ريثما تأتي السيارة التي تقلهن إلى منازلهن، اقترب منهن حتى أصبح على مرأى منهن، ولكن حنين لم تبد اهتماما وظلت تتحدث معهن كأنها لا تراه. فاشتاط غضبا لوهلة، ثم تنحى جانبا لعلها تتبعه ولم تفعل، ورآها وهي تغادر مبنى الكلية مع زميلاتها، فأرسل لها رسالة نصية على هاتفها المحمول ولما قرأتها وقد جاء فيها: "لم تجاهلتني وذهبت؟" ردت عليه "علينا أن لا نثير انتباه الآخرين" فأرسل لها "ألم تقولي

أنك لا تهتمين بكلام الآخرين؟ لهذا كان علينا أن نعلن خطوبتنا" فردت بعدها "الخطبة ليست زواج، لن يتغير من الأمر شيء" فأرسل لها "وضحي ما تقصدين، أنا ما أفكر فيه أننا حبيبان وما دمنا كذلك فعلينا أن نرسم مستقبلنا معا؟" تأخرت بالرد لدقائق ثم أرسلت وهي على وشك الوصول إلى منزلها "لن تفِ الرسائل بمناقشة موضوع كهذا" توقف عمرو بعد ذلك عن متابعة الإرسال، وعندما وصل إلى المنزل أغلق على نفسه حجرته ولم يخرج لتناول طعام الغداء، فلاحظت والدته التغير البادي عليه، فمن الغريب على عمرو أن يلج إلى المنزل دون أن يشاكس أخواته ويمزح معهن، أو يدخل حجرته قبل أن يتوجه إلى المطبخ ليرى ما أعدته والدته من طعام، وعندما نادته والدته للجلوس إلى المائدة، طلب منها أن تتركه وشأنه فحسب، فجال في خلدها أن شيئا ما ضايقه وسوف يعود ويأكل، فتركته.

كانت حنين بالنسبة لعمرو هي الحياة نفسها، ملكت عليه روحه وكيانه، وكل آماله وطموحاته جعلها من أجلها وفي سبيل سعادتها، كان عاطفيا بلغ في المشاعر مداها، الحب بالنسبة إليه

انصهار كيانين ليصبحا كيان واحد، وهذا ما أحسه مع حنين يوم أن صارحته بحبها وتواعدا على المصير الواحد والمستقبل المشترك، وأن الدنيا لو تخلت فلن يتخليا عن بعضهما، كانت سعادته بها لا تضاهيها سعادة، أحس معها بالامتلاء الروحي والاكتفاء العاطفي، فكأنما حاز ملكا لا ينبغي لأحد بعده، الحب عنده لا يعرف خططا ولا استراتيجيات ولا زمان ولا مكان، هو هكذا وجد ليعاش كيفما اتفق للمحبين. لذا لم يكن منطقيا لديه أن ترفض الخطبة، وفي نفس الوقت تأبى التحدث معه على مرأى من الآخرين كما كان دأبهم، إذن متى يتحدثان؟ لم يهدأ ليله من التفكير في الأمر وساوره القلق حيال علاقتهما، ففكر بمهاتفتها ثم أحجم عن ذلك مخافة أن يتسبب لها بالحرج في منزلها، فآثر أن يرسل لها رسالة، نعم ليس سوى الرسائل وسيلة للتواصل بينهما، فما أدراه أنه لو انتظر إلى الغد أنها ستقف لمحادثته، ولا تتهرب منه كما فعلت هذا اليوم، فأرسل لها في بداية الأمر "حنين ... علينا أن نتحدث، فلا تغلقي علي كل الوسائل" فردت تقول "لم أنت في عجلة من أمرك؟ نحن الآن في السنة الأولى وأمامنا طريق طويل قبل أن نفكر في خطوات الزواج" انتهى من قراءة رسالتها

فكتب لها دون لحظة تفكير " اسمعيني يا حنين ما دمنا نحب بعضنا فما المانع من الخطبة؟" ردت عليه على التراخي تقول "لا أريد الآن أي ارتباطات، أنا غير مستعدة" توقف قليلا وأخذ يعصر جبهته وهو ينظر إلى هاتفه ثم كتب لها "حسنا ... كما تشائين" وبعد أن أرسل عبارته الأخيرة عاود بكتابة رسالة أخرى وبعد أن انتهى محاها قبل أن يرسلها، ثم أخذ يكتب ويمحو، فقاطعته رسالة منها تقول "عمرو ... أريد أن أطلب منك شيئا" فهرع يكتب الرد "عيناي لك اطلبي ما تشائين" انتظر وقتا أطول من قبل لتصله رسالتها، حتى بدا عليه التوتر والقلق، ولم يرمش جفنه من شدة ما يحملق في هاتفه ثم جاءت الرسالة لتملأ نصف شاشته "عدني أن تتفهم كل كلمة أقولها لك ولا تتسرع في أي قرار، أنا آثرت بعد تفكير عميق أن لا نظهر كنه علاقتنا للآخرين ،ويبقى ما بيننا سرا، ونتصرف كأي زميلين، ونلتفت إلى دراستنا حتى إذا ما تخرجنا وواتنا الظروف، وكان لنا نصيب سنتزوج" قرأ عمرو رسالة حنين مرات عديدة وفي كل مرة يضيق صدره ويشعر بالاختناق والدوار، وبدأ يحدث نفسه "غير ممكن أن تكون هذه حنين، أين حبها الجارف واشتياقها لي؟ كيف استطاعت أن تكتب تلك

الكلمات؟ هذا يعني أن زواجنا فيه نظر، وأن حبنا لا يكفي لكي تجزم بالأمر، كيف لها أن تقول 'إذا واتتنا الظروف' وإن لم توات ما العمل؟" شعر عمرو أن كلمات حنين مترهلة لا ترق لمستوى الحب الذي يجمعهما، فالحب الذي يتسرب في تجاويف الروح لا يمكن أن يؤول به الحال إلى نهاية في محل نظر، خاف أن يكتب لها ردا فترد بأقسى من هذه الرسالة، أخذ يدور في حجرته ثم ألقى هاتفه جانبا وما زال يشعر بالدوار، فارتمى فوق سريره يجر أنفاسه بصعوبة.

قضى عمرو شهرا تلو الآخر محاولا إقناع نفسه بأن الأمور على ما يرام وأن ما يحدث يصب في مصلحتهما وأن كل ما هنالك هو حرص شديد على الدراسة، وأن ما يجول في خاطره ضرب من وساوس الشيطان، فمضى معللا نفسه بالآمال متصبرا بكلمة أو كلمتين يخطفها منها على عجل، كان يراها تبذل جهدا كبيرا في الدراسة تخطو بخطى حثيثة نحو التفوق والتصدر لا النجاح فحسب، فعذرها لإهمالها له ولم يرد أن يجعل من نفسه سببا لعرقلتها، بل أنه فوق ذلك كان لا يدخر جهدا في تسهيل

الأمور لها وتسليم مهماتها في الوقت المحدد، وكم من ليلة قضاها ساهرا في بحث يخصها أو مخطط ينهيه لها، فكبت مشاعره وكتم حزنه وتحلى بالصبر، ورغم أنه كان يفوقها في الأداء العلمي إلا أنه تراجع بعدها تراجعا ملحوظا للجميع لدرجة أنه لم يتمكن من اجتياز بعض المواد، وتحول من شعلة للنشاط إلى خمول وتزجية للأمور، وفي الوقت الذي حققت فيه حنين الامتياز وانتقلت إلى السنة التي تليها، أعاد هو سنته الأولى مما ضاعف من توتره وإحباطه، وشعوره باتساع المسافة بينه وبين حنين.

مع كرور السنوات تخرجت حنين من كلية الهندسة وعينت فيها معيدة، فهي الأولى على دفعتها، ولم تقف هنا بل واصلت في الدراسات العليا لأخذ الماجستير، وكان عمرو حينها يعافر في سنته الأخيرة ليتخرج، ويالعجب، الاثنان في نفس الكلية ولكن هي معيدة وهو طالب، كان على اتفاقه معها بأن يكونا كأي زميلين، لا محادثات ولا لقاءات جانبية، لذلك كان محرجا أن يحادثها في شأن الزواج والحالة تلك، فآثر أن ينتظر إلى أن ينهي سنته الأخيرة، وبذل فيها قصارى جهده فنقل نقلة كبيرة في درجاته،

حتى يكون جديرا بفتاته المتفوقة. تخرج عمرو أخيرا وبدأ العد التنازلي في ذهنه لليوم الذي سيتقدم فيه رسميا ليطلب يد حنين للزواج، وقرر أن يفاتحها في الأمر في حفل تخرجه فدعاها لحضور الحفل. ظل عشيتها يرتب كلامه ويزنه ويُسمع نفسه ما سيقوله لها في اليوم التالي، كان متأكدا هذه المرة أن كلامه مقنع وأن لا شيء سيقف عائقا أم الخطبة، فهو متخرج وعن قريب سيجد له عملا، حتى وإن تأخر قليلا فلا بأس ما داما قد تعاهدا على أن يكونا لبعضهما، ولا بد أنه لن يعدم حيلة ليبدأ العمل.

في يوم حفل تخرجه هاتفها ليتأكد من حضورها، فأخبرته أنها ستحضر، فاطمأن وسكنت نفسه، وحين كان واقفا مع أفراد دفعته مشرئبا إلى باب القاعة إذا بها تدلف بهدوء كطلة بدر التمام بهاء وصفاء وألق، فارتجف فؤاده وأشرقت قسماته، وحين هم بالذهاب إليها انتبه لوجود شاب يسير بجانبها ولم يكترث في البداية لظنه أنه قريب لها، وقبل أن يصل إليها رآه وهو يسحب لها كرسيا لتجلس إلى الطاولة، فجلست وجلس بجانبها يهمس في أذنها، فامتعض عمرو وارتبك، وعندما أصبح واقفا بمحاذاتها انتبهت

لوجوده فوقفت وحيته وباركت له التخرج وهو ينظر إليها تارة وتارة ينظر شزرا للجالس معها، فقالت حينها:

- عمرو هذا أحمد خطيبي ... زواجنا بعد أسبوع.

مازال عمرو واقفا كمن ابتلع لسانه لا ينبس بكلمة.

قال أحمد معقبا:

- أنت معزوم بلا شك.

ابتلع عمرو ريقه وشعر بسخونة تسري في جسده، وحاول أن يكون عاديا وهو يتكلم، تنحنح وقال:

- ألف مبروك ...

انصرف عمرو ليعود إلى المكان المخصص لطلاب الدفعة يسير كالأعمى، يصطدم بحواف الطاولات حتى وصل إلى مكانه، أدرك أنه كان يعيش في عالم خاص به، وفي الوقت الذي قد تخطت فيه حنين تجربتها معه كان هو عالق في الحلم ووعود

اللقاءات الأولى، ظل بنفس حرارة البداية إلى النهاية، كذب نفسه وتمادى في حلمه، وأغرق نفسه في حلم يقظة جميل ما انفك أن صار سرابا. يالها من بدايات خادعات لا يأمن جانبها لبيب، ولا ينجو من قساوتها حبيب، هل اللوم على الزمن والوقت، أم على عمرو الذي يستمع دائما لصوت عاطفته، ويخمد أي جذوة صوت آخر، ويغمض عينيه عن كل شيء إلا من طيفها، ألم ير الهوة التي نشأت بينهم واتسعت شيئا فشيئا حتى باتت واد سحيق هوت فيه كل الأحلام؟ ألم ير صوتها يخفت وملامحها تبهت من واقعه، فاعتاض عن ذلك بانتعاش صورتها في مخيلته، ألم يفهم الكلمات بين السطور التي كانت تدرجها بتأن وذكاء، هل هو خطأ عمرو أم وفاؤه الذي أودى به. أو لعلنا نوجه اللوم إلى حنين، كيف لها أن تتلاعب بقلب غض؟، أو كيف سولت لها نفسها أن تعلق قلبا بها ثم تنسى وعودها وتتركه رهين الظنون والأحزان؟، ألم يكن جديرا بها أن تكون أكثر وضوحا وتحسم أمرها معه؟، أما أنها آثرت أن تضعه على دكة الاحتياط، تحسبا لعثرات الزمن، أم نعذرها لأنها تفكر بمصلحتها ومستقبلها، وأنها أدركت بُعد العلاقة

من البداية ولم تنجرف وراء عواطفها. في الحب لا أحد ملام ولا أحد مخطئ الكل ضحايا.

عاد عمرو إلى المنزل يجر خيبته محدثا نفسه "لقد قتلتني بكل برود". رغم حزنه وصدمته وحنقه وغيضه من ذاك المدعو خطيبها لم يتمن لها إلا الخير، ما زال يريدها أن تكون سعيدة حتى وإن هي ليست معه، يريدها أن تحقق كل آمالها حتى وإن لم يكن من ضمنها، "كيف لحي أن يعيش بلا روح" هكذا حدث نفسه، فهي روحه ومنتهى أحلامه، فقدها لكنه لم يفقد طيفها الذي لا يغيب، ما زالت هنا لم تبرح فؤاده.

كل ما مر به عمرو وعايشه لم تكن حنين تعلم به ولا يخطر على بالها، كانت صادقة حين أحبته، ولكنها قيمت ذلك الحب بأول تجربة غير ناضجة، فحالته إلى صندوق الذكريات، رأت فيه الشاب الفذ في بداية الأمر، الشكل الجميل والطلعة البهية وأناقة المظهر ولباقة المنطق واتقاد الفهم، وحين نضجت قليلا واستدارت لترى ما حولها بدأ المنطق يتحكم بتفكيرها، ومن هنا جاء الاختلاف، فتساءلت "لم أربط نفسي بشاب ما زال في سنته

الأولى، لا أعرف ما يحمله له المستقبل؟ ثم إني لم أتعرف على أي شاب غيره، فلم أمنع من قد يكون أفضل منه من الاقتراب مني؟" كل تلك التساؤلات لم تكن لتخطر على بالها لوما غلبت المنطق على العاطفة، كما فعل عمرو. ظنت حنين أن بإبعاده طوال سنوات الدراسة، وتسويف الأمور إلى بعد التخرج جدير بأن ينهي العلاقة، ولم تعلم أنها لم تبرح أحلام يقظته ولا نومه، وأنه لن يكون بخير دونها. في الوقت الذي كانت تبني مستقبلها مع شاب آخر، كان عمرو يبني أحلاما من سراب ما برح ينقشع عن حزن لا يزول وجرح لا يبرأ. بدت الدنيا بعدها ضبابا، وتلاشت ألوان الموجودات على إثر غيابها، فلا شيء يثير دهشته ولا إعجابه ولا شيء يغريه في أن يواصل حياته.

كانت عائلة عمرو تأسف لما حل به من نكوص وذبول، ولا أحد استطاع أن يفعل له شيئا أو أن يخرجه من حزنه، لأنه من الأساس لم يعترف لأحد بأن ما يعتريه من تراجع بسبب حبه الضائع وأمله المهدور على قارعة التخلي والخذلان، لم يكن شكاءً لا سيما في ما يعتمل في فؤاده، ليقينه أن ما يحدث له لن يفهمه

أحد غيره، بل إنهم يلومونه على استسلامه وانجرار عاطفته، وينظرون إلى الأمر كمشكلة من زاوية تجعلها صغيرة هينة، بينما هو لم يعد يرى شيئا غيرها لسدها أفق رؤيته من كل ناحية. دخلت عليه والدته ذات نهار وهو على مقعد أمام النافذة مادً بصره إلى الأفق البعيد، وجلست على سريره فاستدار إليها وهي تنظر إليه ثم شرعت تقول:

- يا بني ... إلى متى ستظل على هذه الحال؟ ألا ترى كيف أصبحت؟

أجاب بعدم اكتراث.

- كيف أصبحت؟!... ما المطلوب مني؟
- لا أراك على ما يرام، جميعنا يلاحظ تغيرك.
- دراسة وأكملتها، والعمل سأعمل حين يتاح لي ذلك، لا يوجد شيء لأفعله ولم أفعله.
- كيف ستجد عملا وأنت حبيس حجرتك، حتى أصحابك لا تلتقيهم، انظر إين هم الآن وأين أنت؟

أدار وجهه إلى النافذة وكأنه ينظر إلى شيء بعيد ليداري الضيق الذي اعتراه ثم قال:

- أرجوك يا أمي ... أنا لي ظروفي وهم لهم ظروفهم، لا تقارنيني بأحد.

لم يعجب والدته ما تفوه به فقالت بامتعاض واستنكار:

- وما ظروفك؟ بذلت أنا ووالدك ما نستطيع لتكمل دراستك، لم نحملك أي مسؤوليات ووافقناك على كل ما تريده، أيكون جزاؤنا أن تدمر نفسك وتحطم مستقبلك وتخيب أملنا لأجل فتاة لا تستحق؟!

نهض عمرو من كرسيه واستدار بكل جسده واقفا أمام النافذة وأخذ ينفث أنفاسه بقوه، وبعد دقيقة صمت أوشكت أمه أن تقول شيئا فعاجلها قائلا:

- أرجوك أمي لا تتحدثي عن حنين.

- أنا لا تهمني تلك الفتاة ولا أريد أن أنطق اسمها حتى، يهمني أنت ومستقبلك، أما الفتيات فهن كثر، تذهب حنين تأتي غيرها، يوم أن تنوي الزواج تجد ألفا أحسن منها.

- لا أريد الألف يا أمي ... أستسمحك أن تتركيني بمفردي الآن.

غادرت أمه الحجرة وهي تضرب كف بكف وتتمتم "الله يهديك يا بني"

ضاق عمرو من كثرة اللوم الموجه له مرة من أمه ومرة من أبيه، وحتى أخواته لا يتوقفن عن الخوض من ورائه في سيرة حنين وما فعلته به مع قذفها بأوصاف لاذعة، فيصل إلى سمعه بعض كلامهن مصادفة فيوبخهن، ومرات يؤثر التجاهل فيتظاهر بعدم السماع. فدعاه ذلك إلى الابتعاد عن جو المنزل، ولكن أين سيذهب في وقت كهذا؟ فأصدقاؤه إما قد انخرطوا في مضمار الوظائف أو لديهم أعمالهم الخاصة، والفريق الآخر سار في موجة الاحتجاجات والاعتصامات التي تصاعدت في عدن حينها، كان يريد فقط الابتعاد عن جو التساؤلات والمراقبة فانتهى به الأمر في

ساحات الاعتصام، ورويدا رويدا بدأ يردد الهتافات الحماسية ليتماهى صوته مع أصوات الجماهير، الآن فقط استطاع أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة الأحبال الصوتية دون أن يثير انتباه أحد أو أن يستنكره أحد؛ فهو في اعتصام وأصوات الجماهير تثير فيه رغبة الصراخ ولا يهم بماذا يصرخ، المهم أن يصرخ ويطلق البركان المحبوس في صدره، كان وهو وسط الجماهير يتراءى له كأنه في حلقة جذب صوفية تتلاشى فيها الذات.

بعد سنة من لزومه ساحات الاعتصام انتهت الاحتجاجات، وعاد عمرو إلى المنزل ليعيد حالة السكون والانزواء ومعايشة احتجاجات من نوع آخر، احتجاجات الأهل بيد أنه هذه المرة على الجانب المحتج عليه. انفرطت السنين وهو على حاله لم يحرك ساكنا، بدأت الحرب في عدن وانتهت ولا شيء جديد في حياته، ليجد نفسه في مواجهة العام ٢٠١٧، لا وظيفة ولا زواج ولا بصيص أمل في المستقبل، تلفت حوله فلم يجد سوى عرضا واحدا أمامه، كان عرضا مغريا لشخص لا يُدخل في جيبه مائة ريال، تتساوى عنده الحياة مع الموت، جاءه زميل قديم في الدراسة

الثانوية ولكنه لم يكملها، يدعى محمد ويلقبونه الفأر لضآلة جسمه، التقى بعمرو على محمل الصدفة، ولم يتردد في أن يعرض عليه عملا سيجني منه خمسمائة ألف ريال على رأس كل شهر، ألا وهو الانخراط في جبهة قتال على تخوم البيضاء، قال له عمرو:

- مع من القتال؟

رد عليه الفأر وهو يضحك بسخرية:

- إذا أردت أن تعيش فلا تسأل مع من ولا ضد من، اتبع الأوامر فحسب، قاتل حتى مع الريح ما دام الريح سيدفع.

قال عمرو بلهجة متردد...

- لولا أني سأحمل سلاحا وإلا لقبلت.
- وماذا فيها لو حملت سلاحا؟
- لا أنا لا أرغب في قتل أحد ولا أظنني سأطلق رصاصة واحدة صوب أحدهم مهما كان.

- لا تضيع على نفسك فرصة، بإمكانك العمل ولو مؤقتا لتجمع المال، عندها تعود وتبدأ مشروعا خاصا وتعيش، فكر جيدا إنها فرصة، لا يستمر هناك أحد أكثر من سنتين.

- هل يسأمون من العمل؟

- بل يموتون ...

قهقه ثم استدرك.

- أمزح أمزح ... أقصد أنهم يستبدلون مهنتهم، جرب يا صديقي فالحياة تجارب.

- ولكني لا أحب حمل السلاح ولا منظر الأشلاء والدماء.

- هيا يا رجل، ما بك تتحدث كأنثى؟

استفزت عبارة الفأر عمرو، فرد عليه بغضب:

- هذا لا يعني أني خائف، ولم أكن يوما جبانا، ولكني رجل مسالم، مستعد لعمل أي شيء إلا إزهاق الأرواح.

- على العموم يا صديقي ليس كل من في الجبهة مقاتلون، بإمكانك العمل في الإمداد والتموين، أي أن تصنع للمقاتلين وجباتهم، ولكني أردت لك الأرفع والأحسن.

- سأقبل بأي شيء إلا إطلاق النار.

- عجبي عليك ... لا تريد إطلاق النار لتبقى طوال النهار أمام النار تلفح وجهك.

فاجأ عمرو عائلته بقراره قبل مغادرته بساعات، ولم ينثنِ عنه رغم رفضهم الدخول في أي جبهة كانت، قال له أبوه:

- قضيت سنوات في دراسة الهندسة لتجعل مصيرك في الأخير كمصير ذاك الفاشل، أين ذهب عقلك؟

- وماذا أفعل بشهادة الهندسة؟ لم توفر لي عملا، ولم تشفع لي، ولم تجعلني مفضلا لدى أحد، ربما يفعل ذلك المال...

حزم حقيبته وودعهم ثم مضى لينضم إلى الفأر ويذهبان سويا. غاب شهرا كاملا دون تواصل انضم خلاله إلى معسكر

تدريبي، وبعد انتهاء الشهر وكل إليه مهمة الإمداد الغذائي فبدأ بمزاولة عمله، ومن حين لآخر يهاتف عائلته للاطمئنان عليه. كان مكان عمله بعيدا عن خط المواجهات وكان الشباب يتباهون بالبدل العسكرية والسلاح ويتبخترون بها أمامه في زهو للاستنقاص من شأنه، فكان يتجاهلهم ولا يعير لهم انتباها، وفي ليلة حالكة حيث هو وثلاثة رفاقه يستعدون للنوم بعد يوم من العمل المتواصل بدأت أصوات الانفجارات تتصاعد وتقترب فساد القلق وتحولوا من مكان نومهم إلى نفق للاحتماء، وصارت الانفجارات على مقربة منهم وأحسوا أن المكان محاصر من كل جهة، والأرض تزلزل من تحتهم لشدة الضربات، حينها لم يبق لديهم من أمل في النجاة إلا التضرع إلى الله.

تابعت عائلة عمرو عبر مواقع التواصل الاجتماعي الأخبار الطارئة عن الجبهة وما يحدث فيها من احتدام المعارك، وسقوط ضحايا كثر، فسار هلع شديد وخوف على مصير عمرو وما زاد الأمر سوءا عدم رده على اتصالاتهم المتواترة، لا هو ولا زملائه الذي كانوا يحتفظون بأرقامهم على وجه الاحتياط ليوم مثل

هذا، ولكنهم هم كذلك لا يردون، وما ظل بأيديهم غير متابعة ما يرد على صفحات المواقع، وأثناء ذلك وجدوا خبرا مفاده أن أفواجا من الضحايا في طريقهم إلى عدن، ستقلهم سيارات الإسعاف إلى مستشفى الجمهورية الكائن في مدينة خور مكسر شرق عدن، انقبض قلب أمه وأبيه وقال أبوه:

- سأذهب إلى المستشفى لعله جريحا.

وقالت أمه وهي باكية راجفة اليدين:

- سأرافقك...
- لا داعي ... سأذهب بمفردي ومن هناك سأوافيكم بالأخبار.
- كلا لن أصطبر، بل أذهب معك...

لم تقتنع أم عمرو بالمكوث في المنزل والانتظار، فذهبت مع زوجها، ولما وصلوا المستشفى وجدا نفسيهما وسط هرج ومرج وصياح وبكاء، أعداد من الأهالي متجمعين في ساحة المستشفى ينتظرون أبناءهم وذويهم على أمل أن يكونوا جرحى لا قتلى،

ووالدي عمرو رافعان أيديهما متضرعين إلى الله أن لا يفجعهم بابنهما، بينما هم كذلك وصلت السيارات التي تقل الضحايا، وفتحت لها البوابة الداخلية فاخترقت جموع الأهالي في الساحة الخارجية لتلج إلى الساحة الداخلية، ثم بدأوا بإنزال الجرحى إلى قسم الطوارئ، والقتلى وضعوهم في حجرة منفصلة ليتسنى لذويهم التعرف عليهم، وعندما أتيحت لهما الفرصة للدخول والبحث عن ابنهما لم يجدوه في الجرحى، فصدما وخارت قوى والدته وتهاوت على الأرض مغشيا عليها، فأخذ أبوه يوقظها وعبثا ما حاول، وعندما طلب يد العون جاءت الممرضات ووضعنها على سرير وشرعت إحداهن في قياس ضغط الدم لها، ووضعت لها جهاز التنفس الاصطناعي، وأبو عمرو بجانبها يكابد التماسك، لم يطمئن على عمرو حتى داهمه خوف آخر، ترك أبو عمرو زوجته في رعاية الممرضات وذهب إلى الحجرة التي جمع فيها القتلى، ولما كان على بابها وأمامه الجثامين يحيط بها الأهالي اقشعر بدنه واعترته رجفة، ليست من برودة الجو. بدأ يتفحصهم واحدا واحدا حتى ظهرت أمامه جثة محمد الفأر مبتورة اليدين والرجلين، وكادت ملامح وجهه أن تختفي خلف جروحه الغائرة، وعندما انتهى من

التحديق في وجوه الشباب النائمين نومهم الأخير، شعر بالأسى جراء نهايتهم الأليمة، ولكنه حمد الله واستبشر خيرا أن لم يكن عمرو معهم، وعندما استفسر عن سبب عدم وجود ابنه في الضحايا في الوقت الذي لا سبيل إلى التواصل معه، لم يجد جوابا ولا أحد يعلم عنه شيئا. استكملت الأم أسعافاتها الأولية ثم غادرا المستشفى دون عمرو.

"أين أنت يا حبيبي، من أين آتي بك، هل أنت سالم معافى، أم أصابك شيء؟ ليتني أعلم بحالك حتى يرتاح حالي، رب أرفق بقلبي، رب إن ابني في جنابك فاحفظه واصرف عنه سوء أقدارك، واجمع شملي به، وإن قضيت أمرا فليكن قضاؤه قضائي" هكذا لا تتوانى والدة عمرو عن النحيب والبكاء والدعاء، أما أبوه فهائم على وجهه بحثا عن عنه ولا وجهة محددة ولا خيوط أمل توصل إليه، ومضت أيام والحال لا تتغير، حتى وجد من يرشده قائلا له "لن تجد ابنك وأنت تتابع الأمر في الجهات الرسمية، ولى زمن النظام والرسميات، عليك بمقابلة من يقود تلك الجبهة التي كان ابنك أحد جنودها" استمع أبو عمرو لتلك

النصيحة وحدد وجهته إلى العثور على قائد الجبهة ولم يكن الأمر صعبا ولكنه ليس بتلك الأهمية كما كان مؤملا، دخل مجلسا في أحد ابنية مدينة خور مكسر، قيل له أن القائد موجود فيه، فرأى رجال ملأوا جنبات المجلس ويتحدثون بأصوات متداخلة ورذاذ القات ينفر من أفواههم، وما إن رأوه لووا أعناقهم باتجاهه، وسأله أقربهم إليه عن سبب وجوده فأخبره أنه يريد القائد، فجاء صوت أجش من مقدمة المجلس يقول "قل ما عندك" فالتفت إليه وقد غلب على ظنه أنه هو، وليتأكد سأله" أنت القائد؟" فهز رأسه وأعاد جملته لا زيادة ولا نقصان "قل ما عندك" فجلس في حيث انتهى المجلس يمينا ثم شرع يشرح الأمر والجميع يستمع إليه حتى قال في النهاية "باختصار أريد ابني" أشار القائد إلى أحد الجالسين قائلا له: "انظر يا أبو رعد إلى الكشف، هل به اسم ابنه؟" ففتح حقيبة كانت بجانبه وأخرج ملفا ثم سأل أبو عمرو عن اسم ابنه الكامل، فقال للمرة العاشرة التي يذكر فيها اسم ابنه في هذا المجلس: "عمرو محسن بن عوض" عندها مرر المدعو أبو رعد عينيه على قائمة بها أسماء وقلب أربع صفحات، ثم أغلق الملف، وقال لا يوجد" فصرخ أبوعمرو "ماذا تعني بلا يوجد؟" عندها قام

القائد من مكانه وجلس إلى جانب أبو عمرو بعد أن قام أحد الرجال ليفسح له المكان، وأخذ يهدئه ثم قال له: "لا تقلق ربما ابنك مختبئ في أي مكان، إن هذا الملف فيه أسماء الجنود الرسميين، ويبدو أن ابنك لم يكن كذلك، ففي الفترة الأخيرة التحق مجموعة من الشباب للعمل في مجال الخدمات بالأجر اليومي وهؤلاء يتغيرون كل شهرين أو ثلاثة، إنما سنساعدك للعثور على ابنك" ثم وجه كلامه إلى أحد الجالسين في طرف المجلس وكان الوحيد من بينهم بلباس عسكري، آمرا إياه أن يأخذ أبا عمرو إلى أحد رجاله لم يكن معهم في تلك الساعة يدعى بن ناجي، لأن الخبر اليقين سيكون لديه، فقام العسكري خارجا من المجلس مصطحبا معه أبا عمرو في سيارة جيب عسكرية، وبعد خمس دقائق من سيرهم، أوقف السيارة طالبا منه النزول، فقال أبو عمرو:

- ألسنا ذاهبين إلى الرجل الذي سيخبرنا عن ابني؟

قال العسكري بتلكؤ:

- تذكرت مهمة أخرى، لا وقت لدي، اذهب إليه بمفردك ستجده في بيته.

وصف له بيت بن ناجي على عجل، ثم انطلقت سيارته تمخر في الأسفلت، وظل أبو عمرو واقفا مشدوها بما رأى، وبعد أن تلاشى ذهوله أوقف سيارة أجرة وتوجه إلى العنوان الذي وصفه له العسكري الأرعن على حد وصف أبي عمرو، ولما وصل إلى منزل بن ناجي الكائن في أحد أحياء المنصورة، طرق الباب ليخرج له رجل بعرض الباب وطوله، ولما أخبره أبو عمرو عن سبب قدومه وأنه يبحث عن ابنه المفقود، رد عليه بن ناجي قائلا بعصبية:

- من البغل الذي أرسلك إلي؟
- القائد ...

خفف بن ناجي من عصبيته ثم قال:

- أقصد ما كان عليك أن تأتي هنا، أنا لا أعرف شيئا عن ابنك، كانت مهمتي تجميع عمال، وبمحرد استلامهم العمل تنتهي مهمتي ولا أعرف عن أحد شيئا.

عاد أبو عمرو إلى منزله منهكا خائبا، يلفه العجز والحيرة، وبعد أسبوع آخر ترك له أحدهم خبرا على الفيسبوك ردا على منشور كان قد كتبه أبو عمرو للبحث عن ابنه، وأخبره أنه رأى عمرو صدفة في أحد شوارع محافظة أبين ليس على ما يرام، ووصف له المكان، فلم يدخر جهدا ولا وقتا وانطلق إلى محافظة أبين يحدوه الأمل برؤية ابنه، وهذا ما حصل بالفعل، عثر عليه جالسا على رصيف وقد التهمه الذهول وبدله الشرود في مكان لا يعرف فيه أحدا ولا أحد يعرفه ولا هو مدرك لذاته، أخذه وعاد به إلى عدن، وأدخله المستشفى قبل أن تراه والدته فتصعق من فضاعة هيئته وتدهور حالته، فتلقى العلاج الأولي ونظفه وغير له ملابسه الممزقة العفنة وهذب شعر رأسه ولحيته، ثم هاتف عائلته وأخبرهم بعثوره عليه فوافوهما في المستشفى. أخبرهم الطبيب أنه يعاني من آثار صدمة عنيفة، وأن وضعه قابل للتحسن مع مرور الوقت،

فهدأت نفس أبيه شيئا ما بعد أن ظن أنه وجد ابنه جسدا لا غير، وبعد أسبوع عاد إلى المنزل ليواصل علاجه فيه، وبعد أشهر أخبرهم الطبيب أنه قد تعافى من مرضه ولا حاجة له بمواصلة العلاج، صحيح أن عمرو قد تجاوز الصدمة لكنه لم يعد هو نفسه بل عمرو آخر لا يشبه ما كان عليه، أضحى منطو على نفسه، غير مكترث بما يدور حوله، وأفق مستقبله موصدة أبوابها.

روى عمرو لعائلته ما حدث معه يوم الغارة، وصف لهم كيف حاصرتهم النيران من كل جهة، وكيف أن مجموعة من أصحابهم انقلبوا في لحظة في الجبهة المقابلة، وصف لهم رفيقه الذي تبعثرت أشلاؤه بجانبه، وهو يصرخ لست عسكريا أريد العودة إلى البيت، وتطايرت الشظايا الملطخة بدماء رفاقه فوق جسده، حاول الهروب ولا سبيل غير الجري بأقصى سرعة ولا مكان آمن حينها، لا خنادق ولا سواتر ليس إلا الأرض والسماء، ورجليه اللتين تصطكان بالأرض لتنقذاه، فيصل إلى محاذاة الجبل فاحتضنه أحد كهوفه الذي يتواجد فيه مجموعة من جبهته يحملون أسلحة الكلاشنكوف فرموا واحدا له قائلين له دافع عن نفسك، فأعاده إليهم

قائلا : "لست مقاتلا، ثم ماذا سيفعل هذا مع قذائف الهاون والصواريخ" ضحكوا جميعا وهو لا يعلم هل يسخرون منه أم من الموت أم من حالهم، فقال لهم:

- ما يضحككم؟

رد أحدهم قائلا:

- لم أعدت إلينا السلاح؟ هذا إن بعته ستربح قرابة مليون ... إن نجوت من الموت بالطبع"

- وإن لم أنجُ؟

- سنسترده ونبيعه.

ثم أخذوا يضحكون وهو متمالك نفسه لئلا يبكي، ولما توقف القصف خرجوا من الكهف متوجهين إلى المدينة مشيا على الأقدام وهو معهم وكان متأخرا عنهم لشدة تعبه وإنهاكه، وفي منتصف الطريق انفجر بهم لغم فتناثرت أشلاءهم أمام عينيه فجثا على ركبتيه ثم أخذ يتقيأ، وبعدها لا يتذكر ما حل به.

مع كرور الأيام استقرت حالة عمرو، ولم يعد يتناول أي أدوية، عاد ولكن ليس عمرو الذي يعرفونه أو حتى هو يعرف نفسه، كانت أسرته متقبلة وضعه، مصداقا للمثل "ورضينا من الغنيمة بالإياب" فوجوده وسطهم بعد أن انقطع حبل الأمل في نجاته، لهو ميلاد جديد له. كانوا يرونه يأكل ويشرب وينام ويستيقظ، ومن وقت لآخر يجلس معهم ويشاركهم الحديث، فلم يخطر على بال أحدهم أنه سيحاول التخلص من حياته، فلا أحد كان يعلم ما يخفيه في صدره، ولا بالنار التي تغلي في فؤاده، وبراكين قلبه التي انفجرت فجأة، لتسلمه لحالة من الرفض لكل شيء، حتى حياته، فكانت لحظة اللاشعور التي حاول فيها التخلص من حياته. الجميع يراه حدثا مفاجئا، ولا يعلمون بالنار تحت رماد مشاعره.

النهاية

بعد أن اطمأنت غدير على حالة عمرو، رأت أنها قد أدت ما عليها من واجب، فغادرت عائدة إلى منزلها بمفردها، وبقي طارق في منزل عائلته، يومان ثلاثة، أسبوع أسبوعان ... طالت المدة حتى أصبح وضعا اعتياديا، لم يتحدثا في شيء، كانت غدير تعلم أنه يؤثر الراحة والسهولة، وأنه ما زال مشدودا إلى حياة الماضي، وهو يعلم كذلك، ومتيقن أن غدير تأبى أن تكون نهايتها كزوجة قابعة في المنزل تنتظر زوجها، وترضى بما جادت به يداه، كان يعلم أنها تتجشم الصعاب وتنفر من حياة الركون والاحتياج، وأن روحها الفائرة لن يلجمها شيء، ولكنه لا يجسر على أخذ القرار أو مواجهتها، وترك الأمور تسير كما يتفق، لتتحمل غدير وحدها تبعات النهاية، فتلاشت الأسئلة والرغبات، وبهتت صورة كل منهما في عيني الآخر، كان صوت الأمر الواقع يقول "لا جدوى" فكان فراقا هادئا غارقا في ذهول اللحظات، ومضى كل منهما في معتركه منفردا.

التحقت غدير بالعمل في منظمات الإغاثة العاملة في عدن، وما أكثرها بعد الحرب، واستهواها إلى جانب ذلك العمل الإعلامي، فظل حبرها حارا لا يبرد، لسان حال كل مؤمن بقضية الجنوب وحقه في تقرير مصيره، وفي يوم بلغها خبر وصول شهداء وجرحى إلى مستشفى الجمهورية، الكائن في خورمكسر، وذلك من جراء مداهمة غادرة من مليشيات الظلام، لجنود القوات الجنوبية المرابطة على ثغر من ثغور الجنوب، فأسرعت إلى هناك لتحيط بالخبر، هالها ما رأته في ممرات المستشفى، أمهات يتهادين وقلوبهن منفطرة على أبنائهن الذين لا يعلمن هل هم في عداد الشهداء أم الجرحى؟ وفي خضم ذلك لمحته في الداخل ممددا على سرير أبيض وملابسه العسكرية قد احمرت من دمائه، وقفت أمامه، اختنقت الحروف في حنجرتها:

- طارق؟!

كان ينظر إليها قبل أن تلمحه، ابتسم محدقا فيها:

- نعم طارق! مستغربة من وجودي مع الجرحى؟

آخر ما كنت أتخيله! حمدا لله على سلامتك!

أراد أن يبدد الحيرة التي قرأها في عينيها، فأخبرها أنه التحق بالجبهة منذ أشهر، فزادت حيرتها.

- في الحرب جنحت إلى السلم والهروب، وفي السلم ذهبت لتتجند؟

- أي سلم، الناس تظنه سلما وتظن الحرب قد انتهت، وانغمسوا في حياتهم اليومية، لكن رحى الجبهات ما زالت تدار، ولولا المرابطين من أبطال الجنوب لعادت المليشيات تعيث بمدننا فسادا وعنجهية.

- تغيرت كثيرا...
- أردت أن أفعل شيئا يعيد لي إحساسي بالحياة.
- كدت أن تموت.
- شرف لي أن أكون شهيدا.
- أصبحت مؤمنا بالحرب.
- من براثن الحرب ننتزع السلام.
- خلقنا لنعيش.
- أحرارا.

انتهت

المحتويات

الماضي 4

الحرب 25

النزوح 38

القاهرة 56

العودة 85

عمرو 140

النهاية 171

المحتويات 174